عبد السلام العجيلي

رصيف العذراء السوداء

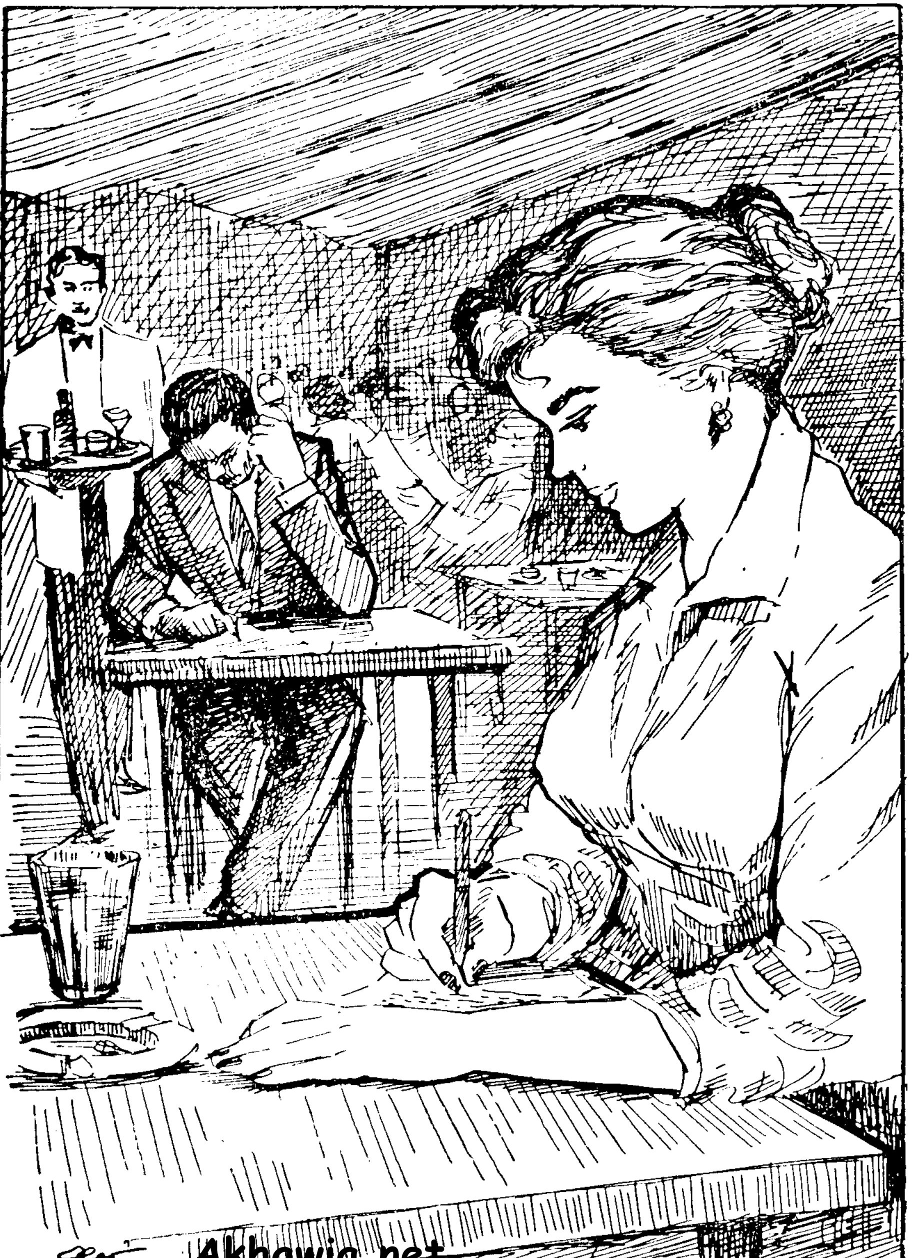
قصص

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

ـ ١ ـ

كل الذين زاروا باريس، وكثير ممن لم يزوروها ولكنهم قرأوا عنها، يعرفون حيّ مونبارناس بمقاهيه ذات الشهرة الفنية العالمية وملاهيه، ويعرفون حي سان جرمان دوبريه. بين الحيين يمتد شارع ليس معروفاً مثلهما هو شارع رين، وفيه، كما في كل شارع في باريس، مقاه صغيرة ليست لها شهرة المقاهي الأدبية في سان جرمان دوبريه أو المقاهي الفنية في مونبارناس ولكن الزائر لا يعدم فيها زاوية جميلة يستريح عندها من عناء التجوال أو يمتع منها ناظريه بمرأى ازواج العشاق يتبادلون القبل نُقْلاً مع الأحاديث. في واحد من مقاهي شارع رين هذا، وهو المقهى الذي يملكه ويديره مسيو روجيه، التقى عباس لأول مرة بماريا لينا.

كان عباس قد اختار له على رصيف المقهى المشمس منضدة جلس اليها يكتب عليها رسائله. وكان مستغرقاً في كتابة تلك الرسائل إلى درجة لم يفطن معها إلى تلك التي احتلت منضدة غير بعيدة منه على الرصيف المشمس ذاته تكتب هي الأخرى عليها رسالة لها. فلم ينتبه إلى ما حوله إلاّ حين سمع مسيو روجيه صاحب المقهى وهو واقف فوق رأسه:



ــ العفو يا سيدي، اغفر لي فضولي... هل في العالم اناس يفهمون هذا الذي تكتبه؟

وكان صاحب المقهى يشير بذلك إلى الكلمات التي كان عباس يخطها في رسالته. فابتسم عباس لهذا السؤال الذي ألف سماعه كلما قرأ مجلة عربية أو كتب اسطراً بحروف لغته في مكان عام، بينما تابع مسيو روجيه كلامه قائلاً:

ــ إن السيدة بجانبك تكتب بلغة غير مفهومة مني كذلك. ولكنها على الاقل تكتب من اليسار إلى اليمين. أمّا كتابتك المقلوبة هذه فأمرها عجيب...

فالتفت حينئذ عباس إلى المنضدة القريبة فالتقت عيناه بعيني جارته التي رفعت نظرها عما تكتبه لدى سماعها كلمات صاحب المقهى وتبادلا ابتسامة قامت بينهما مقام التحية ثم عاد هو إلى رسالته بينما كانت هي تختم الظرف على رسالتها. ولما انتهى عباس من الكتابة تطلع إليها فكان أول ما وقع نظره عليه منها تلك الأصابع الطويلة الرشيقة التي كانت تثبت بها سيكارتها بين شفتيها، والصفرة الواضحة على ادمة تلك الاصابع دلالة ادمان التدخين. واذ رأته ينظر إليها انحرفت إليه وقالت:

ــ السيد عربي، أليس كذلك؟

فأجاب:

ــ نعم. والسيدة... هل هي من اليونان؟

فقلبت بين أصابعها الطويلة الرشيقة المصفّارة الادمة الظرف الذي كان مكتوباً عليه بأحرف لاتينية كبيرة واضحة: آثينا ــ اليونان، وقالت:

ــ أوه، لا... ولكن لي أصدقاء هناك.

وابتسمت وهي تردف قولها:

ــ بعض الناس يعدونني سويدية... والحقيقة أني من كل العالم.

وأدارت رأسها إلى الشارع لاحقة بنظرها عربة اوتوبوس مرت غاصة بالركاب مسرعة في اتجاه ساحة مونبارناس فاتيح لعباس أن يتطلع اليها باطمئنان آمناً من نظرة عينيها الحادة التي كانت تحدجه بها وهي تكلمه. قال لنفسه: ليست فتاة صغيرة ولا امرأة كهلة... ربما بلغت من عمرها الخامسة والثلاثين أو هي تسير مقتربة منها. ولم يكن في الواقع من الهين عليه تقدير عمرها. فقد كان شعرها أشقر في صفرة فاتحة لا يستطيع أن يستدل بلونه على سنها، كثيفاً مجمّعاً على قمة رأسها في عقصة معقدة. وكانت بشرة وجهها نقية نقاء غريباً كأنها لصبية يافعة لولا أن شفتيها الخاليتين من كل أثر للأحمر، المضمومتين في حزم، وعينيها الزرقاوين الصافيتين في حدة، تشي كلها بشخصيتها الناضجة المجربة. كان وجهها جميلاً جديراً بأن يجلب النظر إليه لولا أن لوناً من الغرابة في زيها، وفي حركاتها، كان يخرجها من صف النساء اللواتي تتعلق بهن الانظار، أنظار متتبعي الحسان من النساء.
وأدارت رأسها فجأة وقالت في جد كمن يفضي بسر خطير:

ـ لي صديق يحدثني عن العرب كثيراً.

قال عباس:

ـ لا بدّ أنه سائح زار العرب في ديارهم.

فالتفتت بكل جذعها وتطلعت إلى عباس بنظرتها الحادة قبل أن تتابع كلامها. وقدّر عباس، وهو يتأملها الآن، أنها لو نهضت لبدت طويلة القامة رياضية الجسم أقرب ما تكون إلى المسترجلات من النساء بتكوين أعضائها. ومع ذلك فقد كان ينوس على جانبي عنقها الطويل المتلع قرطان مفلطحان كثيرا الزوائد، كأقراط الغواني المستهترات، لا يتناسبان مطلقاً وثوبها المغلق في جفاء عند العنق والخشن التفصيل والالوان على جودة نسيجه. قالت السويدية الغريبة الزيّ والمظاهر:

ـ صديقي ليس سّائحاً ولكنه راهب عامل. هل سمعت بالرهبان العمال؟ انه يشتغل مع العمال العرب، الجزائريين، في مناجم الشمال ويحبهم... يحب أشياء منهم كثيرة...

وتابعت هي كلامها وتابع هو اصغاءه، فكان في ذلك أول معرفة بين عباس وبينها.

ولقد التقيا بعد ذلك كثيراً... هو عباس الطالب العراقي المترف الذي تنقل في الدراسة من الهندسة إلى طب الاسنان إلى الحقوق وفشل في كل منها. وهي ماريا لينا السويدية الواسعة المعرفة بثقافات العالم ومشاكل الانسانية والمتدينة المتعلقة تعلقاً غريباً بطقوس مذهبها

الكاثوليكي الجديد... فقد كانت بروتستانتية ثم تدينت بالكاثوليكية عن قناعة وايمان. التقيا بعد ذلك كثيراً وعجب كل منهما كيف فاتته رؤية صاحبه قبل الآن ما دام كلاهما يسكنان في الحي نفسه من باريس. ماذا كان يجمع بين عباس وماريا لينا في هذه اللقاءات المتعددة؟ لقد كان كل منهما يعيش في جو وبعقلية وطباع تختلف عن جو الآخر وعقليته وطباعه. فبقدر ما كانت حياة ماريا لينا حياة روحية عقلية أو فنية سامية كانت حياة عباس لاهية صاخبة في صحبة فتيات الحي اللاتيني المتحللات من كل قيد وشبابه اللامبالين، راقصاً مع صديقاته في الروميو أو في المايفير، ملاعباً أصدقاءه الورق في قبو الكابولاد أو النرد على بار كوجاس، وإذا لم تكن له صديقة باريسية، متصيداً له صديقة عابرة: سائحة المانية من بافاريا أو طالبة من النروج يقضي معها سهرته أو ليلته. ولم يكن عباس من الحياء بالقدر الذي يسوقه إلى أن يعمّي ألوان حياته هذه عن ماريا لينا، ولا كانت ماريا لينا من الغباء بأن تخفى عليها تلك الألوان من حياة عباس. ومع ذلك فقد كانت تتقبل دخوله إلى جوها بتفهم وتسامح، وتهز له رأسها حين يقول لها انها هي تتعلق بالروح لأن الروح شيء غامض وهي بطبعها كنوردية قادمة من بلاد الغيوم والضباب والانواء تحب الغموض وتتعلق به... أما هو فهو قادم من بلاد الشمس التي تبعثر الغيوم وتبخر الضباب كاشفة عن لب الحقيقة، والحقيقة هي المادة وهي الجسد. وتضحك حين تعارضه فتقول له بل انك قادم من البلاد التي انبثقت منها شمس الروح على

العالم... وروحك يا صديقي يا عباس أقوى بكثير من شيطان جسدك... وإلا فلماذا تترك صديقاتك وأصدقاءك وتجيء إليّ في هذه الزاوية المتواضعة من هذا المقهى الفقير في شارع رين؟

والحق أن عباس، منذ عرف ماريا لينا، أخذ يستمرىء في صحبتها ما لم يكن يظن أنه يستمرئه وهو في باريس وفي هذه السن وفي هذا التعلق منه بمتع الدنيا ولذاتها.. ولكنه مع ذلك كان يترك كل حياة الشباب الصاخبة وراءه ليقضي الساعة والساعتين في الاستماع إلى حديث ماريا لينا عن آخر خطاب للمونسينيور غرليه في مدينة ليون عن انعدام الروح المسيحية في معاملة أصحاب المصانع للعمال المسلمين أو عن المشاكل الاجتماعية التي خلفتها الحرب الاسبانية الأهلية في مقاطعة كاتالونيا. كان يقول لماريا لينا أنه يحب أحاديثها لأنها تعرفه بأشياء مجهولة منه وانه هو، أي عباس، طالب معرفة... ما دامت قد فاتته المعرفة بالهندسة التي غادر العراق ليتعلمها فلا أقلّ من أن يعرف المشاكل التي تقلق الناس في أوروبا عن طريق أحاديث ماريا لينا ويعرف طباع أهل أوروبا عن طريق صديقاته الكثيرات في الحي اللاتيني! كان يقول ذلك مازحاً، أما في الحقيقة فانه لم يكن يدري أكانت تستهويه في لقائه لماريا لينا أحاديثها الغريبة أم ان دافعاً من شعوره بالاثم كان يدفعه إلى التطهر بمجالستها بين الحين والحين. غير أنه كان واثقاً من أمر كان يعجب منه هو نفسه: فبقدر ما يكون مستغرقاً في الاستماع إلى ماريا لينا وفي

التمتع بجو الفكر والروح الذي يعيش فيه حين يكون معها كان يرجع إلى حلقات أصحابه في الحي اللا تيني متعطشاً إلى ارتياد بؤر الشهوات الجامحة فيها واللذات الفائرة. وجانين صديقة عباس كانت تعرف منه هذا جيداً. فحين تراه هائج الرغبات متفجر الاعصاب يقسو عليها بشفتيه وبيديه وجسده كانت تمسك وجهه بكفيها وتتطلع في عينيه بخبث وهي تقول: اراهن على أن صاحبتك الصوفية قد ألقت عليك بعد ظهر اليوم محاضرة سامية... عظة من عظات القديس توما الاكويني أو فصلاً من حياة القديسة تيريز الافيلاوية!

هل كانت ماريا لينا صوفية؟ نعم لقد كانت درايتها عميقة بتاريخ الأديان ومذاهب الفلسفات الصوفية مثل درايتها بمذاهب الفن الحديث وبعدد من اللغات القديمة والحية. وكان عباس يعرف أن الصوفية ترتفع بصاحبها عن الالتزام الديني الحرفي إلى أجواء نفسية وعقلية أكثر سعة وانطلاقاً. أما ماريا لينا فكانت في حماسها لمذهبها الجديد، الكاثوليكية، مسلمة نفسها إلى تعاليمه والايمان بحكمة رجاله وعصمة احباره إلى درجة كان يضيق بها عباس ذرعاً فيسائلها كيف تتناسى عقلها وثقافتها لتجد حقاً غير قابل للنقاش قولاً يقوله لها عرافها في كنيسة سان سولبيس المجاورة. ولكن ماريا لينا كانت تضحك وتقول لعباس أن المظهر البراق لحضارة الغرب الآلية القائمة على العقل والثقافة يخفي وراءه قلقاً وبؤساً وأزمات روحية لا علاج لها إلا باللجوء إلى ملاذ روحي مثل الذي توفره للانسانية العقيدة الكاثوليكية بتسلسل درجاتها وتعقد طقوسها. وتقول له أنه لو سار

معها بروحه بعض سيره مع صاحباته بجسده لأرته كيف يستطيع أن يبلغ من السعادة وطمأنينة النفس ما لم يبلغه بكل سنواته التي قضاها في البحث عن المعرفة بعقله أو بحواسه. وإذا كان عباس قد تقبل أقوال ماريا لينا هذه في مرات عديدة حاملاً إياها محمل الدعابة فانه في الحق كان يصغي إليها أكثر فأكثر يوماً بعد يوم إلى درجة تطورت معها مجالسه وماريا لينا في قهوة مسيو روجيه إلى نزهات في الشوارع المجاورة لشارع رين: شوارع راسباي وفوجيرار ومونبارناس، ثم إلى زيارات إلى العوالم التي تشغل ماريا لينا وتستأثر بهواها، عوالم لم يضع فيها عباس قدمه منذ وطئت قدمه باريس منذ ثلاثة أعوام بالرغم من أنه كان يعد نفسه عارفاً بكل خفايا عاصمة فرنسا. تلك العوالم هي مراسم الفنانين الخاصة في مونمارتر، ونوادي السينما المغلقة إلا على اعضائها المنتسبين، والكنائس... كنائس باريس الكثيرة ولا سيما الصغيرة منها والغريبة.

ـ ٢ ـ

في ذات يوم أقبلت ماريا لينا على عباس وهو يتناول قهوته في مشرب مسيو روجيه وقالت له:

ـ هل تملك وقتك بعد الظهر هذا اليوم كله؟

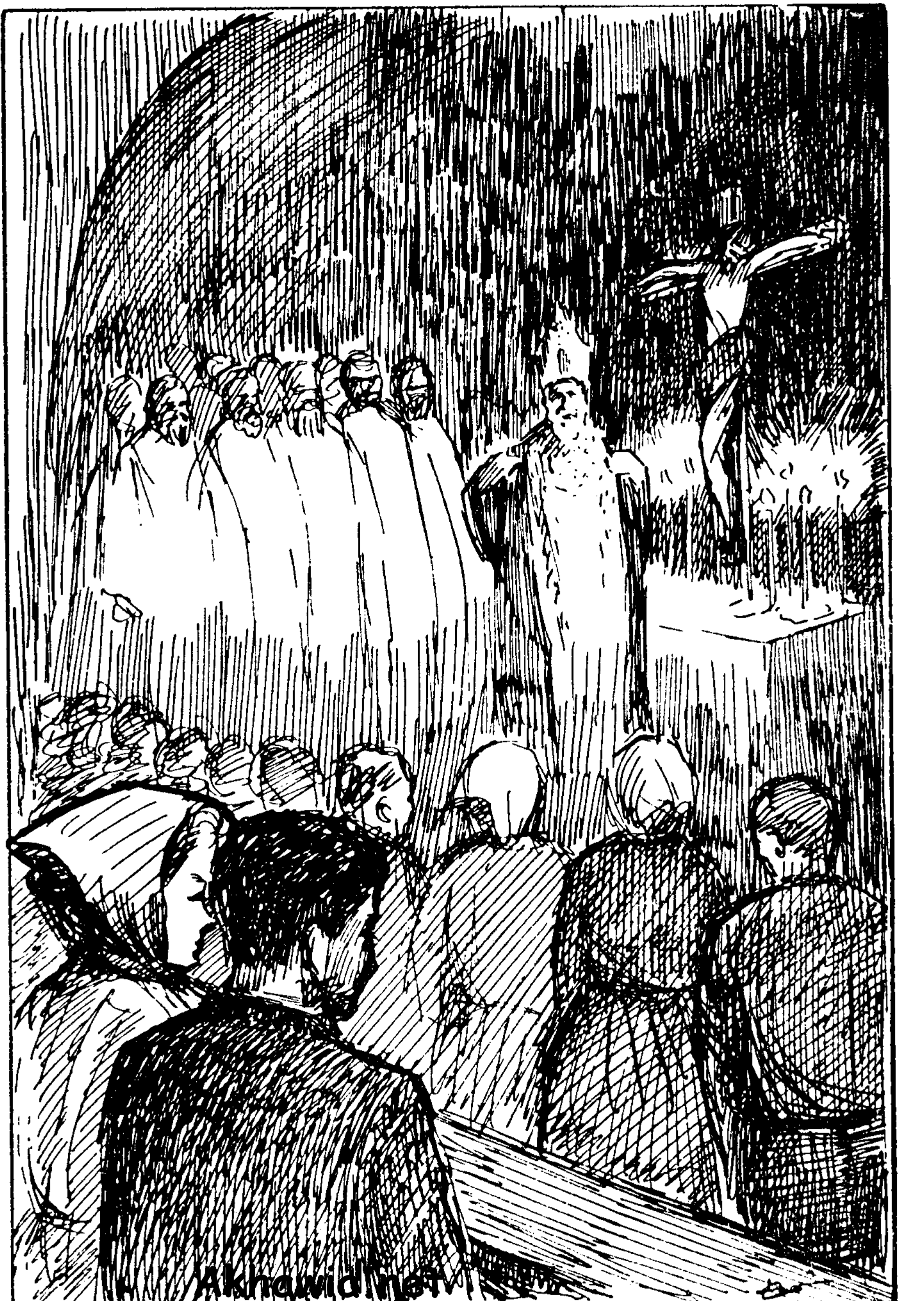
قال لها:

ـ هذا يتوقف على ما تقترحين عليّ اشغاله به...

قالت:

ـ إذن اشرب قهوتك وهلم معي، فان عندي لك بعض المفاجآت...

فتطلع عباس إليها وقال لنفسه ان أول مفاجآت ماريا لينا هو مظهرها اليوم. فقد رآها لأول مرة تلبس ثوباً، على بساطته، أنيقاً أبرز رشاقة قدها الرياضي الذي أدرك منذ بعيد أنها كانت تتعمد التعمية عليه بسماجة تفصيل ما ترتديه من ملابس. وكان نقاء لون بشرتها والتماع نظرتها التي فارقتها الحدة بابتسامتها الجميلة كافيين، إلى جانب اناقتها، لاعطائها مظهر السيدة الفاتنة. غير أن شيئاً واحداً ظل



يذكر عباس بغرابة التقشف الذي عرفه منها، ذلك هو حزام جلدي عريض معلقة به جلاجل نحاسية صغيرة كانت تلف به خصرها. فقال لها:

ــ لولا هذا الحزام الغريب لحسبتك مركيزة شابة ذاهبة إلى كوكتيل في قصر الاليزه... ما هي مفاجآتك يا سيدتي الأنيقة؟

فخيل إلى عباس ان احمراراً خفيفاً، غريباً على ماريا لينا، قد دب تحت بشرة وجنتيها النقية، ولكن محياها لم يلبث أن عاد إلى تورده الطبيعي وقالت:

ــ هذا الحزام تذكار زيارتي لأصدقائي اليونانيين الرعاة في سفوح جبالهم، أهدوني إياه منذ عامين. أما تراه جميلاً؟.. أما مفاجآتي فستعجبك حتماً: ما قولك بزيارة كنيسة عربية وبرؤية هيدي لامار عارية؟

فهتف عباس:

ــ هيدي لامار عارية؟

فضحكت ماريا لينا وقالت:

ــ هذا ما كنت أتوقعه... كنيسة عربية في قلب باريس لا قيمة لها في جانب عري امرأة! كأن كل تماثيل التويلري واللوكسمبورغ الفاضحة لم تشبع جوعك كشرقي محروم من رؤية جمال الاجساد النسائية. سأقودك إلى ستوديو خاص يعرض اليوم على المنتسبين إليه فيلماً تبدو فيه هيدي لامار عارية، وذلك قبل أن تصبح نجمة عالمية.

أما الكنيسة التي سنزورها فهي أقرب إليك مما تظن. انها معبد صغير يقع وراء البانتيون يقرأ فيه القداس بلغة عربية وان كانت كلماتها مكتوبة في كتب الصلاة بالاحرف اللاتينية...

وكانت مفاجأة لعباس حين رافق ماريا لينا إلى الكنيسة التي حدثته عنها أن يجد القداس يقرأ حقاً بلغة عربية في ذلك المعبد الصغير الذي كثيراً ما كان يمر بجواره في ذهابه إلى السوربون أو في عودته منه دون أن يخطر بباله أن الفرنسيين من رواده يصلون فيه بلغة قومه هو. أما في الستوديو السينمائي الخاص فقد رأى عباس إلى جانب أفلام من أفلام الطليعة الفنية تثير بواقعية مناظر البؤس فيها أعمق مشاعر النفس الانسانية، رأى هيدي لامار وهي تلقي بنفسها تامة العري في خضم الامواج في نسخة فريدة لم تصل إليها يد المليونير الذي تزوج هيدي لامار بعد ذلك والذي حرص على أن يشتري كل نسخ ذلك الفيلم، لئلا تقع على كنوز جسد زوجته العريان عين غير عينه. وكان الوقت مساء حين غادر عباس ورفيقته الستوديو. وقالت ماريا لينا وفي صوتها لهجة المكر الذي لم تقو فضائلها الكاثوليكية على اجتثاثه من مزاجها الساخر:

ــ هل تريد أن أدلك على جسد أفتن من جسد هيدي لامار، عارياً أكثر من العري الذي رأيته الآن؟... تستطيع أن تراه في وضح النهار، ودقيقاً في كل تفاصيله. انه جسد المرأة العارية المضطجعة التي

يعلو تمثالها نصب كوفنتو وبيلليتيه، مكتشفي الكينين، في آخر جادة سان ميشيل بالقرب من المرصد... لا بدّ أنك لمحته قبل الآن.

قال ضاحكاً:

ــ ولكنه جسد من صخر يا ماريا لينا. منذ قدمت باريس وهو جامد لا ينبض فيه عرق... علاوة على أني عرفت كل انحناءة فيه لطول ما وقفت أمامه. أما هيدي لامار فقد رأيت ارتجاج ثدييها وهي تقفز إلى البحر أشد ثورة من ثورة الأمواج التي ألقت بنفسها إليها، وتمنيت لو تمليت منها أكثر... لو رأيتها بأقرب مما رأيتها به في الفيلم!

فصاحت ماريا لينا:

ــ أوه... ان الشيطان يتكلم بلسانك الآن يا عباس. لن أغفر لنفسي خطيئتها لو تركتك إلى ليل باريس وأنت تحت سطوته. قل لي ما رأيك لو ذهبنا في هذه الدقيقة إلى باسي... إلى كنيسة للبندكتيين هناك، يرتل فيها الاخوان في كل مساء تراتيل شجية على موسيقى عذبة تنقي النفس من أدرانها؟.. هل تتبعني؟

قالت ماريا لينا هذا في لهفة صادقة، فأجابها عباس إلى اقتراحها ضاحكاً واستقل معها المترو إلى باسي، ذلك الحي الارستقراطي في الضفة اليمنى من السين.

لم يندم عباس على حضوره قداس الاخوة البنديكتيين في كنيستهم في باسي، فقد خرج منه بمتعة روحية ما كان أبعدها عنه في

باريس وفي طراز الحياة التي يحياها. كان مرأى الرهبان ببرانسهم البيض الناصعة وهم مصطفون حذاء المذبح جميلاً وكانت أصواتهم في الترتيل عذبة مؤثرة وألحانهم تشيع في النفوس شعوراً بالطمأنينة والصفاء إذا لم تلهمها مشاعر التقوى والخشوع. وأغمض عباس عينيه وهو يستمع إلى تلك التراتيل فتصور أنه يسمع أدعية حزب الموت وأوراده في حلقة من حلقات المريدين النقشبنديين، كان في صغره، يرافق والده اليها بعد عشاء كل يوم اثنين في المسجد الصغير في حارة أهله في بغداد. ما أبعد كنيسة باسي في باريس عن مسجد في الكرادة في بغداد، في المدى والزمن وفي الناس والطقوس! ومع ذلك فان الصفاء الذي حل على نفسه في حلقة النقشبنديين وهو صغير هو الصفاء ذاته الذي أحس به في هذه العشية لتراتيل البنديكتيين. واغرورقت عيناه بالدمع في فيض تأثره بما يسمع ويشعر. وكانت ماريا لينا تتطلع إليه متأملة في انعكاس مشاعر نفسه على محياه، فلما انتهى القداس مست برفق يده وقالت:

ــ هل يزعجك إذا عرّفت بك أحد الاخوة البنديكتيين؟

قال عباس:

ــ بل يسعدني ذلك.

قالت:

ــ انه من لبنان، عربي مثلك... ورجل قديس. سأطلب إليه أن يمنحك بركاته.

قالت ماريا لينا هذا وتركت الزاوية التي كانا فيها متوجهة نحو المذبح. وهناك انحنت تسار أحد الرهبان الواقفين قريباً منه فأدار هذا رأسه المجلل بقلنسوته البيضاء وأجال نظره حتى التقت عيناه بعيني عباس. حينذاك رفع ذراعه من بعيد مصلباً بكف برزت دقيقة من طيات ردائه الكهنوتي الفضفاض...

وخرج عباس وماريا لينا من الكنيسة وسارا صامتين في شوارع باريس حتى انتهيا إلى أرصفة السين وعباس لا يزال تحت تأثير نشوة قداس البنديكتيين الروحية. وفجأة سألته رفيقته:

— إلى أين تنوي الذهاب الآن يا عباس؟

قال عباس:

— تريدين الحقيقة؟ ان لي صديقة اسمها جانين واعدتها على أن نقضي هذه الليلة نتسكع بين حانات مونبارناس. ولكني سأعتذر إليها حتماً، فما أجد في نفسي الميل إلى التسكع في صحبة جانين.

فابتسمت ماريا لينا وقالت:

— هذه بركة الاخ زيادة التي منحك إياها هذا المساء، قد حلت عليك. اسمع... لقد كنت دليلتك في الايام الأخيرة إلى أماكن كثيرة، وعليك أن تقابلني بالمثل مرة واحدة على الأقل.

قال:

— ومعنى ذلك؟

قالت:

ـ اني أتوق إلى سهرة في جو شرقي. لا بد أنك تعرف أين يمكن أن توجد سهرة من هذا النوع... فهل تقبل أن تكون أنت دليلي؟

فابتسم عباس وهو يقول:

ـ هذا يسرني. ويبدو أنه لا بد من التسكع هذه الليلة... فحاذري أن تراك جانين، فانها شديدة الغيرة.

فمدت ماريا لينا يدها إلى حزامها وضربت باصابعها على بعض جلاجله فارتفع منها رنين غريب الوقع في تلك الساعة وذلك الجو، وقالت:

ـ أنت تحسن اطراء النساء. ولكني كما ترى، أحمل تعويذة تدفع عني غيرة العاشقات...

فضحكا معاً، وودعها على أن يلتقيا بعد العشاء في مقهى مسيو روجيه.

ـ ٣ ـ

عاد عباس إلى مقهى مسيو روجيه فوجد ماريا لينا في انتظاره تجذب من سيكارتها انفاساً بطيئة حالمة. وكانت لا تزال ترتدي ثوبها الأنيق الذي خرجت به بعد ظهر هذا اليوم، وقد أضافت إلى زينتها البسيطة قرطين من أحجار براقة طويلين كانا يتدليان إلى جانب عنقها كأنهما يلفتان النظر إلى أنه طويل وحسن الاستدارة. فتمنى عباس آنئذ لو أن صديقته تركت حزامها ذا الجلاجل في فندقها إذن لكانت هيئتها لا تختلف عن هيأة أية باريسية أنيقة قاصدة أحد مطاعم العاصمة الشهيرة أو مسارحها لسهرة مترفة. ولكنه وجد ماريا لينا، حين نهضت لمرافقته، لا تزال تدير حول خصرها هدية رفاقها الاعزاء رعاة الماعز في جبال اليونان! ووجدها كذلك تأبى أن تُسلب في الليل بوهيميتها في النهار، فقد رفضت عرضه عليها أن يستقلا سيارة أجرة في طريقهما إلى مكان سهرتهما سألته:

ــ أين يقع ذلك المكان؟

فقال:

ــ في شارع لاهوشيت، قريباً من جسر سان ميشيل.

الولادة، تلقّى في حبله السرّي نفس كميات الاوكسيجين المشع حسب برنامج تاهاوانا لتصنيف الاجنة. إلا أن طرق التنظيم الولادي المتقدمة لم تمح كل الخصائص الشخصية للمورثات في صبغيات خلايا تكوين الرجلين: فبينما بشرة العالم بيضاء موردة وعيناه زرقاوان واللمعة الذهبية في بياض شعره توحي بشقرته قبل أن يشيب، تُرى بشرة رامي سمراء نحاسية وعيناه الواسعتان خضراوين ولمة رأسه الكثيفة في لون الليل الحالك.

عاد هامان إلى الكلام عن ابنة صديقه بعد أن انشغل لدقيقة أو دقيقتين في تتبع معادلات راحت تعرضها لعينيه شاشة أحد العقول الكهرضوئية، قال:

ـ أعرف ما تطمح إليه سامارا. رغبتها ليست في العمل في دائرتنا هنا، بل انها تريد أن نرحلها إلى مخابرنا حول زحل، إلى يابيتوس.

قال رامي بلهجة المستنكر لطموح هذه الفتاة التي لم يسبق له أن سمع باسمها:

ـ كأنك رأيتها قبل الآن يا هامان!

قال العالم: كلمتني من مخبر أبيها، أمس. وهي الآن في طريقها الينا.

وقبل أن يعقّب رامي بكلمة سطع في جو القاعة ضوء بنفسجي



ــ عذراء سوداء ؟

قالت :

ــ نعم. تمثال أسود للسيدة العذراء. هناك عدد قليل من العذارى السود في أقطار متباعدة من العالم لكل منهن منزلتها... وعذراء شارعك هذا لها معجزات كثيرة، وشهرة مستفيضة عند المؤمنين.

قال عباس بلهجة لا يبدو فيها شكه الجائل في نفسه :

ــ هذا حسن... إذن فأنا أعيش في حماية هذه السيدة المباركة ! باسمها اذن أرجوك أمراً هيناً...

فرفعت ماريا لينا عينيها مستفهمة، فتابع قوله :

ــ المكان الذي سنسهر فيه يؤمه في العادة معارف كثيرون لي. لا أريد أن ألفت انتباههم في فضول إلينا في ارتدائنا زياً يخالف ما تعارف عليه الناس... أقصد هذا الحزام ذا الجلاجل !

فضحكت ماريا لينا وقالت :

ــ ماذا تقترح أن أفعل به... القيه في الشارع ؟

قال :

ــ لا، بل اعطينيه اودعه في فندقي. وما دام هذا طريقنا في العودة فستأخذينه آخر السهرة.

فتوقفت قليلاً كالمتفكرة ثم لم تلبث أن حلت الحزام عن وسطها ووضعته بين يدي عباس. وظلت على رصيف الشارع تنتظر حتى عاد عباس من غرفته في الفندق حيث أودع الحزام، فواصلا سيرهما إلى الملهى الصغير بالقرب من جسر سان ميشيل.

كان ذلك الملهى صغيراً، مترفاً، يطلقون عليه اسم الملهى الشرقي تجوّزاً، فهو في الحقيقة مربع طرازه طراز المغرب العربي، وكذلك موسيقاه وراقصاته. اركانه مفروشة بالارائك الواطئة والسجاجيد وجدرانه مكسوة خشباً مخرماً التخريم الجميل الدقيق مما لا يزال شائعاً في مساجد افريقية العربية ودورها ومما يشبه في زركشته زركشة الآثار الاندلسية في اشبيلية وقرطبة ولا سيما في قصر الحمراء في غرناطة. ويبدو ان من زين جدران ذلك الملهى قد نقل أشكاله الزخرفية عن زخرفة جدران قصر الحمراء، ولكنه في المستطيلات المتتابعة التي تحمل في زخارف الحمراء شعار بني الاحمر «لا غالب الاّ الله» وضع جملة جديدة أكثر تلاؤماً مع حياة السهر وأجواء باريس ومعتقدات الناس في القرن العشرين. هذه الجملة هي «لا شيء أجمل من الحب». وهكذا ترى هذه الجملة، «لا شيء أجمل من الحب»، بحروفها العربية مكررة في اطار يحيط بجدران الملهى تلفت النظر بالنور الأحمر المتسرب من خلال تخاريمها في الخشب المزخرف. إلا أن ماريا لينا، حين دخلت الملهى أمام عباس، لم يلتفت نظرها إلى هذه الجملة منذ البدء إذْ انجذب انتباهها في الأول إلى وسط الملهى الصغير حيث كانت

ترقص، على الأرض المفروشة بالسجاد وعلى انغام تخت شرقي الآلات، فتاة سمراء ممشوقة الجسم متلوية في حركات رشيقة ومثيرة في آن واحد. ويبدو أن ماريا لينا، بالرغم من تنقلها الكثير بين اليونان الهلينية والسويد النوردية وجنوب اسبانيا المحرق، لم تقع عينها قبل على رقصة شرقية مثل التي كانت ترقصها تلك السمراء. فقد تسمّرت عيناها على الراقصة متتبعة في شغف تلوي قدها اللدن وارتجاج أعطافها وأطرافها حتى انتهت الرقصة باستلقاءة الراقصة في حركة تخاذل واستسلام مقصودة، على ظهرها، وعلى السجاجيد. حينذاك رفعت ماريا لينا عينيها إلى رفيقها وقد بدا فيهما بريق غبطة متوقد، وقالت:

ــ ما أجمل هذا!... ومع ذلك فاني أمر كل يوم قريباً من هذا المكان دون أن أعرف ما فيه من متعة وجمال...

وادارت نظرها عن عباس إلى جنبات المربع الصغير تتأمل في رواده وفي أثاثه وزيناته، ثم قالت:

ــ هذه كتابة عربية... فهل باستطاعتك أن تعرّفني بما تعنيه؟

وكانت بذلك تشير إلى جملة «لا شيء أجمل من الحب» في مستطيلاتها المتتابعة على أربعة جدران الملهى فقرأ لها عباس الجملة بالعربية وترجمها لها، ثم قال ضاحكاً:

ــ كل ينادي على ما عنده. ترى كم يكون عدد رواد هذا المكان لو أنهم كتبوا في هذه المستطيلات الشعار الذي كان يحتلها في

جدران الحمراء: «لا غالب إلا الله»؟.. . لقد استبدلوه بشعار أكثر جلباً للربح وأقرب إلى قلوب من يجيء. وصديقته اليهم في آخر الليل... لا غالب إلا الله... لا شيء أجمل من الحب!... ما أبعد ما بين الشعارين؟!.

فالتفتت ماريا لينا إلى عباس وقالت، وكل ملامح الجد على وجهها:

ـ ما أبعد؟! أنا لا أرى بعداً يا صديقي... فالله محبة.

فابتسم عباس لحرارة لهجة ماريا لينا، ولم يقل شيئاً. فعادت هي تقول:

ـ الله محبة... أليس هذا صحيحاً يا عباس؟ أنا مؤمنة بهذا... ويجدر بك وأنت في زهرة عمرك أن تؤمن به مثلي.

فالتفت عباس إلى صدر الملهى حيث كان أحد أفراد التخت يعلن عن راقصة جديدة ستبرز مغدقاً عليها كل نعوت الفتنة والرشاقة والابداع الفني، وقال:

ـ أنتِ يا عزيزتي حرة في أن تؤمني بما تشائين. الله عندك محبة... أما أنا فالله، عندي، معرفة. نعم... الله معرفة!

قال عباس كلمته هذه وانصرف إلى تأمل الراقصة الجديدة التي برزت إلى الحلبة في جلبة موسيقية ثائرة. ولم يدر عباس في الحقيقة أهذه الكلمة، «الله معرفة»، كانت من بنات أفكاره أم أنها قد تسربت إليها من قراءة بعيدة. كل الذي يدريه أنه قالها وكررها

بجدة، ربما لأنه ضاق بجدل ماريا لينا الديني وأفكارها الفلسفية التي حملتها معها إلى قلب هذا الملهى المعربد في منتصف الليل. ويبدو أن ما شغل عباس شغل ماريا، فقد سكتت عن التعقيب على ما قاله وانصرفت مثله، وربما أكثر منه، إلى تتبع حركات الراقصة الجديدة التي بدا من أول حركاتها أنها تفوق الراقصة الأولى في رشاقتها واثارة رقصها وفصاحة تعبيرها عما تريدة برقصها.

وأخيراً ختمت هذه الراقصة رقصتها بأن ارتمت على الأرض تلهث. فتطلع عباس إلى ماريا لينا فرآها مقيدة البصر بجسد الراقصة الطريح، ليس في عينيها ذلك الألق المتوقّد الذي رآه فيهما في تطلعهما إلى الراقصة الأولى، بل كانتا كأنما طفت على حدقتيهما غمامة كست نظرتها بالغموض والابهام. فتصور عباس أن ماريا لينا قد أدركت أخيراً ماذا تعنيه حركات هذه الراقصة التي ظلت خلال نصف ساعة تلاعب على أنغام موسيقى بدأت ميلودية شجية ثم انتهت عصبية هائجة، تلاعب كل عضلة من عضلات جذعها وأطرافها مندفعة بها شيئاً وراء شيء حتى انتهت بها إلى اختلاجات متساوقة ثم إلى تشنجات متقطعة، وهي ملقاة على ظهرها ثائرة الشعر منفرجة الشفتين مجهدة الملامح. وتصور أن شعور ماريا لينا المرهف الاحساس بما دبجته يراعات المتزمتين في موضوع الخطيئة الأصلية لبني البشر قد تأذى بادراكها معاني تشنجات الراقصة ولهاثها بينما وجهها المحتقن يتفصد عرقاً، فكان من ذلك هذا الوجوم في ملامحها والغموض في

نظراتها وهي التي بدت مسحورة أول ما سمعت موسيقى الشرق ورأت رقصه وجو ملاهيه. فمدّ يده إلى منكبها يهزه في رفق وقال لها:

ــ ماريا لينا!

فاستدارت إليه وقالت والوجوم لا يزال يكسو محياها:

ــ لنخرج من هنا...

حينئذ أحسّ عباس بواخز الندم يخزه على ما أتى به هذا المساء، على أن نقل ماريا لينا من عالم الصفاء النفسي إلى عالم الصخب والشهوات، من جو المحبة الطاهرة إلى أجواء الحب الشهواني. وتناول يدها وخرج بها مسرعاً من الملهى ثم من الازقة الصغيرة التي ينفتح عليها وراء الجسر، سالكين طريقهما إلى جادة سان ميشيل ثم إلى شارع فوجيرار الذي جاءا منه أول السهرة.

قال لها وهما يضربان بأحذيتهما على أرصفة الشارع الطويل المظلم

ــ ماريا لينا... هل أزعجتكِ هذه السهرة؟

فسمعها تقول بلهجة من استيقظ لتوه من غفوة:

ــ بل كانت سهرة ممتعة.

ثم توقفت فجأة، عن المسير وعن الكلام، وتطلعت إلى عباس وقالت في لهجة أقرب إلى المرح:

ــ قبل كل شيء دعني أصارحك بأنك رفيق قليل الدراية بأصول

اللياقة في رفقة النساء... تراني أرتجف برداً ولا يخطر في بالك أن تأخذ بيدي، بل أنت تحرص على أن تسير دوماً على بعد ثلاث خطوات مني كأنكَ تخشى مني عدوى مرضٍ ما!

فانشرح صدر عباس لزوال وجوم رفيقته وتناول ذراعها فضمه إليه حتى أحسّ التصاق جذعها بجذعه وبأن خطاهما قد اتحدت في سيرهما في الشارع المقفر. وعادت ماريا لينا إلى الحديث فقالت:

ـــ أنا منزعجة حقاً... لا بهذه السهرة الممتعة كما تظن، بل لأنك لم تعترف معي بأن الله محبة!... من أين أتيت بقولك أن الله معرفة؟

فضحك عباس ضحكة قصيرة وراح يتلمس، في جمل مصطنعة يؤلفها، تبرير كلمته التي قالها عفواً ودون تفكير. قال:

ـــ الله معرفة... لا أستطيع أن أقول على التحقيق كيف أدركت هذا، ولكني أؤمن به...

ثم سكت قليلاً وأضاف:

ـــ ربما كان منبع ايماني بهذا القول من الطبيعة والجو اللذين جئت أنا منهما. أنتِ تقولين أن الله محبة، والمحبة شيء غامض لا حدود له ولا تعريف واضحاً... شيء ملفلف بضباب الأحاسيس والعواطف المبهمة، وهو مما يتلاءم مع الطبيعة التي نشأت وتعيشين فيها. أما طبيعة بلادي فشمسها ساطعة تذيب كل لبس، وترد كل شيء إلى مقاييسه الأصلية وتفرض معرفة كل أمر. كلما زادت معرفة المرء زادت قيمته، وقمة المعرفة هو الله...

وبدا لعباس أنه لأول مرة يقف أمام ماريا لينا موقف الأستاذ من التلميذ، وأنها كانت تستمع إليه مصغية بكل جوارحها. فتوقف قليلاً قبل أن يجد لفكرته مثلاً موضحاً ثم تابع كلامه قائلاً:

ـ تأمّلي... إذا كنت في البحر فهبّت عليّ عاصفة لعبت بالسفينة لجأت إلى الله أطلب عونه. لماذا؟... لأني مقبل على مجهول لا أعرف إلى أين ينتهي. فلو عرفت في ساعتها سرعة الريح ومدى اضطراب الأمواج وزوايا ميل السفينة عليها وقوة مقاومة صفائح الفولاذ في جوانبها وكان لي عقل الكتروني يحسب محصلة تداخل آلاف العوامل التي تثيرها العاصفة أو تثور بها لعرفت على التأكيد أين مصيري، ولما احتجت إلى الهرب بجهلي إلى الله. هل تعتبرين كلامي تجديفاً وكفراً؟

قالت ماريا لينا وهي تلصق جسدها بجسد عباس في سيرهما المتسارع ابتغاء الدفء:

ـ اكمل... أرجوك!

قال عباس:

ـ إن الجهل هو أكثر ما يبعد الانسان عن ربه. عندنا يطلقون على كبار الصالحين لقب العارف بالله، وكلما تقدم الانسان بمعرفته قرب من منزلة الالوهية. فحين يدرك الانسان كل سر في هذا الكون يصبح الانسان الهاً. ولكن ذلك على الانسان مستحيل... أما لأن ادراك المعرفة الكاملة شيء متعذر على الانسان أو لأن الاله العظيم

الذي هو معرفة كاملة لا يسمح للانسان بأن يدرك كل شيء لئلا يصبح فيها الهاً آخر. بهذا أقول أن الله معرفة... كما أقول أن الطريق إلى الله هو المعرفة كذلك!

وأدرك عباس الحماس لفكرته التي بدأها غير متحمس فلم ينتبه إلى أنه كان يشد على ذراع ماريا لينا بقوة وهو يقول:

ــ اسمعي... أنتِ تحسبين أنكِ وصلتِ إلى الله ما دمتِ تسمعين القداس وتحبين موسيقى التراتيل وتنظرين إلى كل شيء في هذا العالم بعين المحبة. ولكن الحياة ملأى بالاشياء غير الجميلة التي يجب أن تعرفيها، لا أن تحبيها، قبل أن تبلغي منزلتكِ من الله...

قالت ماريا لينا:

ــ مثلاً؟

قال عباس وهو لا يزال في فورة حماسه:

ــ الفقر والألم... الخطيئة... ماذا تعرفين يا ماريا لينا عن الخطيئة؟

وهنا كانا قد قاربا من سيرهما في الشارع مكان تفرع الزقاق الجانبي الذي يقع فيه فندق عباس. فتذكر عباس أنه ترك فيه حزام ماريا لينا ذا الجلاجل، فقال لها قبل أن يسمع جوابها على سؤاله الأول:

ــ أما تأخذين حزامك يا ماريا لينا؟

فأسندت ظهرها إلى جدار الزاوية التي يلتقي بها الشارع بالزقاق وقالت:

ــ سأمرّ معك لآخذه. ما قلته الآن عن المعرفة يبدو لي منطقياً، فأيّ فيلسوف من فلاسفتكم قال به؟ ولكن الذي قال تلك الجملة المكتوبة على جدار الملهى، وهو من قومك ولا شك، أقرب إلى قلبي وروحي... كيف تنطق يا عباس تلك الجملة بلغتك؟

قال عباس:

ــ الذين كتبوا تلك الجملة لا يعنون بالحب ما تريدين أنت منه حين تقولين أن الله محبة... ربما عنوا به ما رأيت الراقصة تمثل أدواره بحركات جسدها يا ماريا لينا، هل تذكرين؟ تلك الجملة ينطقونها بالعربية هكذا: لا شيء أجمل من الحب!

قالت ماريا لينا في همس:

ــ رددها مرة أخر... أرجوك!

فهمس عباس بدوره:

ــ لا شيء أجمل من الحب... لا شيء أجمل من الحب...

فرفعت ماريا لينا ذراعيها إلى منكبي عباس واحتضنته، فالتقت في الشارع شفتاها بشفتيه في قبلة طويلة.

وكان حزام ماريا لينا ذو الجلاجل في غرفة عباس في الفندق

ولكنها لم تلبسه إلاّ في الساعة الرابعة صباحاً. في تلك الساعة خرج عباس يرافق ماريا لينا إلى منزلها في الجانب الآخر من شارع رين. ولم ينتبه عباس حين خرجا من زقاق فندقه إلى شارع فوجيرار إلى أن ماريا لينا قد تخلفت عنه خطوات إلا حين سمع وراءه صوتاً اصم كسقوط جسم ثقيل على الرصيف الذي كان يسير عليه. فالتفت خلفه فاذا بماريا لينا جاثية على الأرض ملقية برأسها على حجارة الرصيف الصلدة الباردة وهي تجهش وتبكي... تطلع عباس حينذاك إلى ما حوله فعرف في الرصيف الذي كانت ماريا ساجدة عليه رصيف المنزل الذي يضم العذراء السوداء.

ـ ٤ ـ

كان التنقل من أحضان فتاة إلى أحضان أخرى ملهاة الطلاب الفاشلين، أمثال عباس، في مقاهي الحي اللاتيني ومرابعه. بقدر ما يكون واحدهم عاشقاً متيماً ذا تصرفات مطبوعة بطابع الشهامة وسمو العاطفة واللباقة قبل أن يظفر بفتاة يتعقبها بقدر ما ينقلب ذئباً وقحاً ينضح سلوكه بالقحة والتبجح بعد أن تتصيدها حبائله وتقع فيها فريسة طيعة. ولكن كل عناصر قصة عباس مع ماريا لينا كانت تبعد هذه السويدية عن أن تدرج في جملة النساء اللواتي تعود هو ورفاقه تعقبهن وتصيدهن. لذا فقد ظلّ اسبوعين كاملين في حوار ومداورة مع نفسه، حائراً بين مشاعر الخجل والندم ودوافع اللذة والغبطة، قبل أن يستجمع شجاعته ويقرر أن يعود إلى مقهى مسيو روجيه في شارع رين باحثاً عن ماريا لينا، وهو في قرارة نفسه لا يدري كيف يكون أمره، وأمرها، حين تقع عيناه على عينيها مرة أخرى.

أجال عباس نظره في المقهى حين بلغه بعد الظهر في الساعة التي اعتادا اللقاء فيها فلم يشاهد ماريا لينا في الزاوية وراء منضدتها المعهودة على الرصيف. فشعر حينذاك كأن حملاً ثقيلاً ازيح عن ظهره

واتسعت ٱبتسامته على شفتيه لمرأى مسيو روجيه الذي أقبل يحييه ويسأله بقوله:

ــ سلاماً يا سيدي. مضى زمن لم تُرَ فيه، لا أنت ولا السيدة... أهي مسافرة؟

فتجاهل عباس سؤاله وقال:

ــ منذ متى لم تأت السيدة إلى هنا؟

فتردد مسيو روجيه قليلاً قبل أن يجيب:

ــ آخر مرة رأيتها فيها حين خرجت بصحبتك... كان ذلك منذ أكثر من أسبوعين، أليس كذلك؟

قال عباس وهو يأخذ مجلسه على كرسي على رصيف المقهى:

ــ ألم تترك لي بعد ذلك رسالة، أو تسأل عني تلفونياً؟

قال صاحب المقهى:

ــ أبداً يا سيدي... لو كانت لك رسالة لحفظناها.

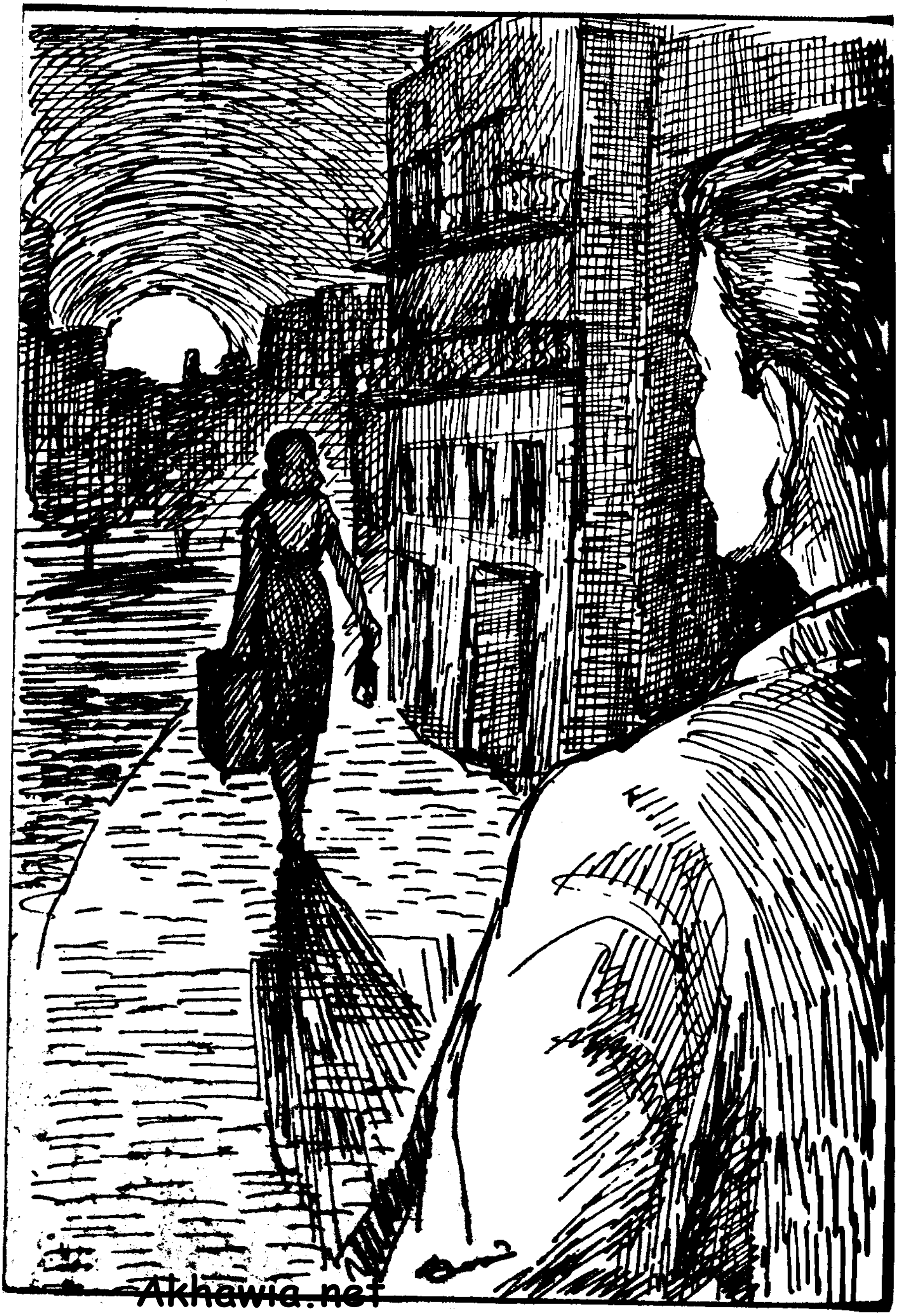
فاسترخى عباس على مقعده وقد شعر بأن القلق الذي كان يملأ نفسه من ترقب لقائه بماريا لينا قد تبدّد وتلاشى وأعقبته طمأنينة مريحة. ولكن تلك الطمأنينة لم تلبث أن تبدّدت بدورها وأعقبها شعور بأسى مرير حين أدرك أن تلك الليلة لم تمر هينة على ماريا لينا.. فها هي قد تباعدت ليس عنه فحسب، بل حتى عن المقهى

الذي يقع على خطوات من فندقها الذي تنزل فيه. أين ترى أصبحت الآن؟...

أين أصبحت ماريا لينا؟ ردد عباس هذا السؤال على نفسه مرات كثيرة في كل مرة عاد فيها إلى مقهى مسيو روجيه ولم يجد فيه لها أثراً ولا منها خبراً. وتتالت الأيام. وكان الربيع قد انقضى على فراق عباس وماريا لينا وأعقبته أشهر الصيف متتالية. وفي كل هذه الأيام والأشهر لم يمر عباس بمرسم لفنان طليعي أو بكنيسة ولا وجد في من يحيط به من يحادثه في الروح والجسد وفي الله أهو محبة أو معرفة. وكان إذا عاد إلى فندقه ليلاً آثر أن لا يجعل طريقه يمر بالمنزل الذي يقوم فيه تمثال العذراء السوداء أو، على الأقل، أن يمر بعيداً منه على الرصيف الآخر من الشارع. ذلك لأنه كان يسمع في كل مرة له أمام ذلك المنزل صوت ارتطام جبهة ماريا لينا بأرض الرصيف ونشيج بكائها. كان يقول لنفسه أحياناً أن الأمر قد يكون أهون مما يظن. فان ماريا لينا المؤمنة بالاعتراف والغفران الممنوح للتائبين قادرة على أن تحصل على راحة نفسها باعتراف نادم أمام عرافها في كنيسة سان سولبيس القريبة. ولكنه كان يدرك أن أسى ماريا كان أعمق من هذا.. ربما كان مصدر ذلك الأسى اصابتها في كبريائها كامرأة أكثر من اصابتها بسلوكها كمتدينة. فقد كان هو الحمل الضال وكانت كامرأة أكثر منه دراية وأعمق ثقافة وأشد ايماناً تحاول أن تهديه وتطرد من نفسه الشيطان الذي كان ينفث ناره في عروقه ويلقي كلماته على لسانه... فماذا كانت النتيجة؟!... تمنى عباس لو أنه استطاع

لقاءها مرة واحدة، اذن لما حاول أبداً أن يلقاها بكبرياء رجل تملّك انثى ولا بكبرياء ضال سفّه مقدسات مؤمن وافحمه في مناظرة مشهودة... بل لاعتذر منها ان لم يكن بأقواله فبسلوكه وبسيره وراءها في طريق الهداية ما استطاع المسير. فقد أوحشه في الواقع بعدها عنه وحرمانه من الاجواء التي كان يجول فيها في رفقتها، بقدر ما أثّر فيه الأسى الذي قدّر أنه سببه لها. ولكن أيام الصيف تتالت على عباس وعاد إلى عبثه وحياته الماجنة متباعداً شيئاً فشيئاً عن أيام صحبته لماريا لينا وان ظلت ذكرى تلك الصحبة حية في نفسه وظل الوجوم يصيبه كلما تعرف في حلقات أصحابه على الفتيات القادمات من موطنها، السويد، أو قرأ في الصحف أخباراً تمت بصلة إلى الميادين التي كانت قريبة إلى نفسها وتفكيرها: الفن الحديث ومنابعه في الشعور الديني، المثقفون وصلاتهم بالحركات الانسانية والعالمية، الايمان الروحي وقلق انسان العصر الحديث...

إلى أن جاء يوم من أيام الخريف عاد فيه عباس إلى فندقه فوجد باسمه رسالة هاتفية، من سيدة تضرب له موعداً في مشرب في شارع في جزيرة سان لويس، الجزيرة الصغيرة التي تقع في وسط السين والتي تضم أقدم أحياء باريس وأكثرها طرافة. لم تعط تلك السيدة اسمها لكاتب الفندق، ولكن عباس حدس أن لا بد من أن تكون هي، ماريا لينا. فلما ذهب إلى الموعد وجد أنها حقاً هي، ماريا لينا، تنتظره في مشرب يبدو بالبناء الذي قام في طابقه الأرضي وبطراز



أثاثه وقدم ذلك الأثاث وحتى بالنور الضئيل الذي كان ينير زواياه والذي كان منبعثاً من مسارج معلقة في الجدران، كأنه قائم لا في باريس اليوم بل في باريس القرن الثامن عشر وأيام الثورة الفرنسية.

ولم يكن بادياً من ماريا لينا حين وقعت عين عباس عليها في عتمة زاوية المشرب إلاّ شبحها. هتف باسمها محيياً بصوت بدت فيه اللهفة واضحة بالرغم من محاولته كتمان لهفته فردت عليه ماريا لينا تحيته بصوت هادىء ولكنه خافت ومدت إليه يدها مصافحة فاحتوى أصابع تلك اليد بكلتا يديه. وكان عباس يعرف طول أصابع ماريا لينا وامتشاق تلك الأصابع، إلا أنه حين عاد بذراعيه إلى جانبيه فطن إلى أن كفها بدت له أخشن مساً مما ألفه. قال لها:

ــ ما أسعدني برؤيتكِ يا ماريا لينا... أين كنتِ كل أشهر الصيف؟

فأجابته بصوت ذكره بلهجتها الحالمة حين التقيا أول مرة على رصيف مقهى شارع رين:

ــ في مكان ما في أواسط فرنسا... كنت أعمل في قطاف العنب في كروم بورغونيا...

وسكتت قليلاً ثم أردفت بلهجة أكثر مرحاً:

ــ إذا شربت يوماً ما كأساً من نبيذ بورغونيا فقد تكون قطفت عناقيده يداي أو داستها في احدى المعاصر قدماي...

فضحك عباس وقال:

ــ هذا يجعل تلك الكأس أشهى!

وفي أثناء ذلك كانت عينا عباس اللتان الفتا نور زاوية المشرب الضئيل قد أخذتا تميزان ملامح ماريا لينا في العتمة التي كانت تلفها. محياها كان لا يزال في دقة خطوطه جميلاً متناسقاً، ولكن النقاءُ الذي كانت تتسم به بشرتها كان قد اختفى وبدت في وجنتيها بقع كأن بثوراً اندملت قد تركت آثارها فيها. ورأى يديها اللتين وضعتها على المنضدة أمامها قد أفسد امتشاق أصابعهما تشقق في راحتيهما وجفاف في ظاهريهما. كان موقا عينيها محمرين وشعرها الاشقر الاصفر الطويل ثائراً في خصلات مبعثرة تدل على اللامبالاة وعلى ما هو أكثر منها، على الشقاء!... فمد عباس كفيه واحتضن بهما كفيها وقال:

ــ ماريا لينا... ما الذي فعلته بنفسكِ؟

فلم تحرك ماريا لينا كفيها تحت راحتيه قيد شعرة، ولكن عباس أحس بهما مثلجتين كأنما عدمتا الحياة. قالت:

ــ لا شيء، إلا انني كنت أعمل... هل في العمل ما يخجل؟

فتردد عباس قليلاً قبل أن يسألها:

ــ أأنا السبب في هذا؟

فضحكت ماريا لينا ضحكة قصيرة وقالت:

ــ يا لغرور الرجال!... ولكن دعنا من هذا ولنخرج من هذه الزاوية المظلمة.

فتبعها عباس خارجين من عتمة المشرب العتيق إلى الشارع حيث كانت شمس الخريف، على مرضها، تسكب النور وبعض الدفء على نواصي المنازل في أزقة جزيرة سان لويس الهادئة. وبينما كان عباس يتأمل في ضوء النهار آثار الاجهاد والفاقة، والالم، على ملامح صاحبته وفي ملابسها التي ترتديها أحسّ فجأة بأن الحقيقة قد هبّت في أعماق شعوره كأنها نفحة دافئة في يوم شات شديد القر. أدرك في نفحة الحقيقة هذه لم، بعد كل لقاء له بماريا لينا وحديث له معها، كان يعود إلى حلقات أصدقائه مندفعاً في صخب الشباب وأجواء ملاذه الجسدية، ولم كان يقسو على جانبي عشيقته بشفتيه ويديه وبشهواته. أدرك لَمَ كان معذب النفس طول أشهر الصيف الفائتة بحسبانه أنه كان مبتئساً لحال ماريا لينا بعد خطيئتها... خطيئتها هي، فما كان عباس يعد ما جرى غير خطيئة لماريا لينا هو براء منها. أدرك لَمَ كان سهومه ووجومه لكل ما كان يذكره بماريا لينا، في غيابها، وبأجوائها. الآن، وفي نفحة الحقيقة التي هبّت على عباس، أدرك أنه كان يفعل كل ذلك ويشعر بكل ذلك لأنه يحب ماريا لينا!...

نعم انه يحب ماريا لينا. كيف يحبّها؟ لماذا يحبّها؟ انه لا يستطيع أن يعرف في هذه اللحظة كيف ولماذا، ولا يحسب أنه سيعرف ذلك يوماً ما. كان يشعر بأن عاطفته التي أحس بها هذه

اللحظة أوسع من أن تحيط بها المعرفة وأسمى. إنه ليحب هذه المرأة التي تكبره سناً والتي تسير الآن إلى جانبه بقدها المديد وشموخ أنفها الاقنى كأن نفسها، بالرغم من ملامح محياها المجهد وتشعث شعر رأسها ورثاثة ملابسها، تتحداه بصفائها ونقائها. وشعر عباس في هذا الحين بأن الغبطة تملأ قلبه وتكاد تسوقه إلى أن يجثو على ركبتيه في عرض الشارع الذي يسيران فيه هاتفاً بماريا لينا أنه يحبها! إلا أنه لم يجد الجرأة على أن يعترف لها بحبه فجأة وعلى هذه الصورة، وتبعها مملوء النفس بالنشوة يصغي إليها بسمعه ويسارقها النظر بين الحين والحين بطرفه.

وتوقفت ماريا لينا بغتة عن المسير وأمسكت بكف عباس فضغطت عليها بقوة حتى لقد أحسّ بخشونة الشقوق في راحة يدها على ظاهر كفه. قالت وهي تشير إلى بوابة كبيرة لأحد المنازل كان وقوفهما أمامها:

ـ هنا أسكن... ألا تحب أن ترى غرفتي؟

فرفع عباس عينيه إلى ماريا لينا فوجد على شفتيها ابتسامة متألقة مسحت في عينيه على كل ما خلفته البثور المندملة في وجهها وأعادت إلى بشرتها صفاءها القديم. قال جواباً على سؤالها:

ـ أكون ممتناً لكِ... لا تنسي أنكِ لم تريني غرفتك في فندقكِ بالقرب من شارع رين؟

فتقدمته ماريا لينا إلى الساحة الصغيرة التي تلي البوابة التي وقفا

أمامها في داخل المنزل. وكان ذلك المنزل عتيقاً تكاد تتداعى جدرانه، وتلك الساحة فيه سماوية مما تندر رؤية أمثالها في أبنية باريس في القرنين الأخيرين. وعند أصل الدرج الخشبي المتآكل الذي يرتفع إلى طوابق المنزل العليا وقفت ماريا لينا وقالت:

ــ غرفتي هنا ليست في ترف غرفتك التي رأيتها منذ أشهر. ستراها صغيرة وفقيرة، ولكنها هادئة... وأنا مدينة لك بهدوئها...

وتحولت لتصعد الدرج، ولكنها ترددت في ذلك ثم تحولت إلى عباس وأردفت:

ــ أنا مدينة بأشياء كثيرة لك يا صديقي. أشياء كثيرة حثتني على أن أعرفها فحاولت معرفتها في الأيام القليلة التي فارقتك فيها... وعرفت بعضها، ولم أندم. تعرفت على الألم وعلى الفاقة... وعلى الخطيئة. لا تنس اني عرفت الخطيئة... أو تعرفت عليها كذلك!

وكانت ماريا لينا، وهي تقول هذا، تتطلع إلى عباس مسندة ظهرها إلى حائط السلم الذي رقت أولى درجاته، كأنها قد غيرت عزمها فلم تعد تنوي الصعود بعباس إلى غرفتها. أما عباس فقد كان مملوء الصدر بنشوته على اكتشافه حبه لماريا لينا، لا يدرك مما تقوله إلا ما يتساوق وهناءته بذلك الحب. تابعت ماريا لينا كلامها بعد سكوت قصير:

ــ عباس... هل تدري أني أصبحت من رأيك في أفضلية المعرفة على كل فضيلة، وفي ان الله معرفة؟

فابتسم عباس وقال بهدوء وببطء دون أن يغير وقفته أو يحول نظرته:

ــ وأنا صرت من رأيك يا ماريا لينا.. أصبحت مثلكِ أؤمن بأن الله محبة!

ثم وضع يده على كتف ماريا لينا وقال لها وهو يدفعها برفق إلى الصعود على درجات السلم:

ــ أما ترينني غرفتكِ؟ المعرفة شيء سام ولكن يبدو لي أنها عاجزة عن ادراك مفهوم المحبة والحب... مثلاً: أنا أحبكِ، لو عرفتُ كل شيء عنكِ لما قدرت معرفتي أن تزيد في حبي لكِ أو تنقص منه. لماذا تنظرين إليّ هكذا يا ماريا لينا؟ أنا، حقاً، أحبك!

فأدارت ماريا لينا نظرها عن عباس بعد أن كانت وقفته عليه لحظة حين صرح لها بعاطفته، ثم تابعت صعودها على الدرج المتداعي حتى بلغت موقفاً بين الطابقين الأول والثاني من المنزل. وفي هذا الموقف انحرفت ماريا لينا إلى غرفة جانبية في أصل بناء الدرج. ولم تكن تلك الغرفة في الحقيقة غير فجوة موشورية لها قاع وثلاثة جدران، أما الجدار الرابع فيصعد مائلاً حتى يلتقي بمقابله مكوناً سقفاً وجداراً في آن واحد. كل ما في تلك الفجوة من أثاث كان سريراً حديدياً وكرسياً عتيقاً من الخشب وأكواماً من المجلات والجرائد منثورة على قاعها في الزوايا. ولما دخل عباس وراء ماريا لينا إلى تلك الغرفة دعته باشارة من يدها إلى الجلوس على الكرسي الخشبي بينما جلست هي على السرير وقالت متسائلة:

ـ كنت تقول ماذا يا عباس؟

فلم يفطن عباس إلى مزيج الأسى والسخرية الذي ألقت به عليه سؤالها وقال بحماس:

ـ اني أحبكِ يا ماريا لينا...

فأجالت ماريا لينا نظرة عينيها في أرجاء الغرفة الحقيرة ببطء وأمرت يديها على وجهها وعلى ثيابها، ثم مدتها إلى عباس كأنها تريه آثار القروح والتشققات فيهما، وقالت:

ـ تحبني أنا؟!

فهزّ عباس رأسه مجيباً وابتسامته التي كانت تملأ وجهه وعينيه تفيد أن آثار البؤس في بدنها وفي عيشها لا تعني شيئاً في مقاييس حبه لها. فشبكت ماريا لينا آنذاك ذراعيها على ركبتيها، في جلستها على حافة السرير الحديدي، وقالت بصوت هادىء:

ـ اني أصدقّك. ولكن يبدو يا عباس أنك مخطىء في أن تحبني أو أني مخطئة في أني لا أتقبل حبك.

قال محتجاً:

ـ ماريا لينا... ماذا تقولين؟

فاستمرت في كلامها قائلة:

ـ لعلك لم تر على باب غرفتي حقيبتي الحقيرة التي تضم كل ما

أملكه. اني مسافرة إلى الشمال، إلى منطقة المناجم. وقد حرصت على أن أراك قبل أن أترك باريس ظانة أن علمك بأني أصبحت أركض وراء المعرفة، معتقدة بأن الله يتمثل فيها، يثلج نفسك. وها أنت...

فقاطعها عباس بقوله:

ـ ماريا لينا... أنتِ لا تنوين حقاً أن تتركي باريس. أن تتركيني أنا...

قالت بلهجة كأن نزقاً حاداً يكمن وراءها:

ـ ولم لا، أيها العزيز؟

ثم لم يلبث صوتها أن تطامن وبدت فيه نبرة أسى وهي تقول:

ـ طريقانا مختلفتان يا عباس، بل لعلهما متعاكستان. أنت سرت من المعرفة نحو المحبة وأنا بدأت من المحبة لانتهي إلى المعرفة. في هاتين الطريقين المتعاكستين لا يمكن أن نلتقي إلاّ مرة واحدة... ويبدو أننا التقينا في تلك المرة. تقاطعت طريقانا مرة واحدة فالتقينا، وذلك على رصيف العذراء السوداء، هل نسيت؟

فنهض عباس فجأة من مجلسه على الكرسي الخشبي حتى كاد رأسه أن يصطدم بسقف الحجرة المائل. ولكن ماريا لينا أمسكت بذراعه فأجلسته، ولما أراد أن يتكلم وضعت على شفتيه أصبعين من كفها اليمنى، اصبعين كانا مشيقين فأصبحا مليئين بالقروح والشقوق، وقالت:

ـ لا تقل شيئاً يا عباس. قلت لك أن طريقينا لا تلتقيان إلا مرة واحدة، وقد كانت تلك المرة. من حسن حظنا أنهما التقتا على رصيف العذراء السوداء وتحت نظراتها الحادبة!... والآن كن كريما ورافقني إلى باب هذا المنزل وحسب. ان حقيبتي ليست كبيرة.

فغص عباس بريقه وهو يحاول أن يعبر عن مضطرم مشاعره بالكلمات فلا يستطيع. ولا يزال إلى الآن يعجب من نفسه كيف ظل مع كل ما أحس به حينذاك ساكتاً صامتاً. كل الذي يذكره أنه خرج وراء ماريا لينا من غرفتها الضيقة، وانحدر وراءها السلم، ثم وقف وراءها على مدخل تلك البوابة العتيقة في ذلك الشارع الضيق في جزيرة سان لويس ينظر إليها وهي تسير في اتجاه الجسر الذي يصل الجزيرة بفناء كنيسة نوتردام، وشمس المغيب ترسم لها وراءها ظلاً طويلاً وتحيط قدها المديد بآخر أشعتها منعكسة في بريق على أطرافه، حتى ليكاد شعرها الأصفر يتوهج عن بعد متوقداً في عيني عباس كتوقد هواها في قلبه وتوهج ذكراها في خواطره.

زيلوس، كوكب الغيرة

هذه قصة حدثت في المستقبل. ربما عسر على القارىء فهمها أو أدارت رأسه وقائعها، إلا أنه لاحقّ له في عدم تصديق هذه الوقائع لمجرد أنها لا تخضع لمسلّمات علمية متعارف عليها في عام ١٩٨٣ للميلاد. على القارىء أن يتذكر أن أحداث هذه القصة تجري، ليس في أيامنا هذه بل في أيام آتية، في العام الميلادي ٢٠٨٣.

ـ ١ ـ

«... في أول توجهي إليكم، في اجتماع دائرة أبحاث الترحيل بين النجوم هذا، لا بد من ذكر المبدأ الذي انطلقت انجازاتنا من تطبيقه، على الرغم من معرفتي بأن ما أقوله هو من بديهيات تفكيركم. المبدأ هو أن الفرق بين المادة والطاقة هو في الحركة، وفي سرعة الحركة. فالمادة طاقة ساكنة، والطاقة مادة متحركة... ليس كل حركة بل الحركة التي تبلغ سرعتها أو تتجاوز هذه السرعة رقماً اعتقد اسلافنا الاولون، حتى نهاية القرن الفائت، القرن الميلادي العشرين، باستحالة بلوغه. وأعني بهذا الرقم مقدار سرعة الضوء البالغة مائتين وتسعة وتسعين ألف كيلومتر وسبعمائة وثلاثة وتسعين كيلومتراً في الثانية، في الفراغ.

طريق الوصول من المبدأ إلى التطبيق واضحة. اسلبوا موجة الضوء حركتها، اجعلوا سرعتها صفراً أو ما يقارب الصفر، تتحول فوتاناتها حينئذ إلى مادة. إلى مادة ملموسة. وبالمقابل اعطوا المادة التي تختارونها سرعة ٢٩٩٧٩٣ كيلومتراً في الثانية تتحول تلك المادة عندها إلى اشعاع، ربما إلى نور غير مرئي، أعني إلى طاقة مشعة يمكنكم بثها إلى أي مكان تريدون.

نحن في هذا الزمن، في أواخر القرن الواحد والعشرين وفي عام ٢٠٨٣ على التحديد، قد فعلنا هذا. لقد حولنا المادة إلى اشعاع، ثم استطعنا أن نعيد تحويل الاشعاع فنرده إلى مادة، وذلك عن طريق سيطرتنا على عامل السرعة سلباً وايجاباً. ونتيجة لتوصلنا إلى عملية التحويل المزدوج هذه قدرنا على أن نقوم بترحيل ما نريده ومن نريده، بسرعة لم تكن تخطر على بال الاوائل، ترحيلاً بين الكواكب السيارة، ثم بين النجوم الثوابت، في سبيلنا إلى الاسفار بين المجرات. وهذا ما عجز اسلافنا عنه، في القرن الفائت وما قبله، بل ما حكم اولئك الاسلاف بأنه مستحيل الامكانية والتحقيق.

لماذا عجز الاولون عن هذا وهم قد عرفوا ذلك المبدأ مثلنا وقبلنا؟ نعم انهم عرفوه. بل انهم طبقوه، وان ظل تطبيقهم له محدوداً. طبقوه على المادة ذات البعد الواحد، فحولوا الصوت إلى أمواج كهربائية بثوها في الاثير بسرعة النور في الاذاعة الصوتية، أو ما كانوا يسمونه الراديو. وطبقوه على المادة ذات البعدين فيما سموه التلفزيون. حولوا الصورة واللون في أجهزة التلفزة المرسلة إلى أمواج معدّلة، كهربائية مغناطيسية، تتلقاها اجهزة مستقبلة لتردها إلى صور وألوان. فعلوا كل هذا وتوقفوا. عجزوا عن تحويل المادة المجسمة، المادة ثلاثية الابعاد، إلى اشعاعات قابلة للبث والارسال... لماذا؟

ربما كان عجزهم لأنهم افتقدوا الشجاعة على المضي في الطريق إلى نهايته. والاصح لأنهم وقعوا فريسة تضليل فئة قصيرة النظر

والادراك من العلمين كانت تؤمن بقيم مطلقة عصيّة على البلوغ والتجاوز. سرعة الضوء، وهي ٢٩٩٧٩٣ كيلومتراً في الثانية، كانت عندهم قيمة حدّية ونهائية لا يمكن الصعود فوقها. درجة الحرارة -٢٧٣,١٥ مئوية تحت درجة تجمد الماء المقطر كانوا يسمونها الصفر المطلق ويعتبرونها قيمة حدّية نهائية لا يمكن النزول دونها! تلك القيم التي توهموا استحالة تجاوزها كانت اغلالاً كبلت أيديهم وعقولهم وحالت بينهم وبين متابعة البحث المؤدي إلى السفر بين الكواكب ثم إلى التجول بين المجرات. كان أكثر ما افتخروا به وتشدقوا هو نزولهم على تابع أرضنا الصغير، القمر، الذي لا يبعد عن منازلهم إلا ٣٨٤٥٥١ ثلاثمائة وأربعة وثمانين ألف كيلومتر وخمسمائة وواحد وخمسين كيلومتراً...

أعرف أن صغار أبنائنا، الذين يرونني الآن على شاشات منصاتهم، يضحكون من افتخار أسلافنا بنزولهم على القمر. لا بد أن نعذر هؤلاء الصغار في ضحكهم، فقد فتحوا أعينهم على أسفار منظمة لمؤسسة الترحيل بين النجوم ننقل بها الباحثين ثم الزوار إلى فوبوس وديموس، قمري المريخ الصغيرين، والى مستعمراتنا القائمة على سطح الزهرة. أسفار لم يحلم بها الاولون لأنهم ما تمكنوا من الوصول إلى الطريقة الصحيحة للترحيل. اذ عجزوا عن التحكم بالسرعة تحكماً يتيح لهم تحويل المادة إلى اشعاع ثم رد الاشعاع، أو الطاقة، إلى مادة. وها أنا الآن أعلن لكل من يلتقط كلماتي باذنيه أو يقرأها على شاشة

منصته، عن افتتاح جدول السفر إلى التابع يابيتوس، العاشر من أقمار الكوكب زحل. من هناك، من مخبر الاستقبال في دائرتنا على ذلك التابع، تنتظم الرحلات إلى نطاق الحلقة الاولى من نطاق زحل، وبعد عبور شق كاسيني الفاصل بين الحلقتين الاولى والثانية من ذلك النطاق يمكن القيام بجولة تصل إلى سطح زحل نفسه...

أعلن هذا إليكم الآن من منصتي في دائرة الابحاث لاننا في هذا اليوم، وفي هذه الساعة، نقف في منتصف النافذة الزمنية التي منها يمكن الولوج إلى عالم زحل. تعرفون، أو يعرف من له علم منكم بمبادىء الاسفار في الفضاء بين الكواكب، ان زحل يتم دورته حول الشمس في تسعة وعشرين عاماً من أعوامنا الارضية ومائة وسبعة وستين يوماً. منذ نصف هذه المدة، أعني منذ أربعة عشر عاماً ومائتين وستة وستين يوماً ونصف اليوم، كان زحل بنطاقه وأقماره العشرة في ذروة ابتعاده عنا، وراء الشمس. وقد أخذ منذ ذلك الحين يقترب من أرضنا حتى أتم نصف دورته وصار في هذا اليوم بالذات في أقرب مواقعه الينا، على بعد يبلغ ١ ٢٧٢ ٥٨٧ ٠٠٠، مليار ومائتين واثنين وسبعين مليوناً وخمسمائة وسبعة وثمانين ألف كيلومتر. هذا البعد الذي يبدو شاسعاً ليس كذلك بالنسبة لنا في دائرة أبحاث الترحيل بين النجوم. فالاشعاعات التي نبثها، سواء كانت أمواجاً ضوئية مجردة أو مادة مجسمة حولتها أجهزتنا المرسلة إلى فوتونات، تقطع هذا البعد بمدة واحد وسبعين دقيقة، تنقص اثنتي عشرة ثانية في حالة ما يكون البث إلى القمر يابيتوس وليس إلى زحل ذاته.

ولكن زحل، ابتداء من هذه اللحظة التي أكلمكم فيها، سيزداد ابتعاداً عنا باستمراره في مداره حول الشمس، إلى أن يصبح بعده سحيقاً بحيث يدركنا الجهد في اللحاق به بعد ستة شهور. فالنافذة الزمنية التي يسهل علينا من خلالها البث المتكامل إلى هذا الكوكب النائي لا يتجاوز مداها العام الواحد. مضى من فترة هذه النافذة ستة شهور قضيناها في تجارب كانت كلها ناجحة، وبقي منها ستة شهور علينا أن نغتنمها لنبث فيها، بشروطنا الخاصة، ما نريد ومن نريد إلى بابيتوس. وإلا فاننا سننتظر تسعة وعشرين عاماً أخرى قبل أن تنفتح لنا النافذة التي وصفتها لكم.

بعد هذه المقدمة المبسطة سأفصل لكم ما يأتي...».

ـ ٢ ـ

هذه المقدمة المبسطة كما سماها ملقيها، وهو العالم هامان رئيس دائرة أبحاث الترحيل بين النجوم، هي مدخل الحديث الذي توجه به إلى مستمعيه، سواء الحاضرين منهم بأجسادهم في قاعة الاجتماع الاهليلجية أو المتابعين له على شاشات أجهزتهم المستقبلة، في مدن الارض وعلى قمر الارض وفوق الاقمار الجيوستاتيكية حول الارض. بعد هذا المدخل جاء دور الابحاث الرياضية الفيزيائية المعقدة التي كانت عناصرها ترسم على شاشات المشاهدة من قبل روبوتات الكترونية وعقول كهرضوئية يسيّرها، كما يسيّر المايسترو بعصاه عازفي اوركستراه، العالم هامان وهو واقف على المنصة بقده المشيق الفارع.

من تقع عينه على هامان مرة واحدة لا ينسه أبد الدهر. رجل طوال مستقيم القد، تنطق بفحولة مثيرة تقاطيع وجهه وارتسامات تكوينه. ويحار الناظر إلى هذا العالم الطائر الصيت بين ابيضاض تاج الشعر الكثيف على هامته وبين حيوية الشباب المتفجرة في نبرات صوته والطافحة من فتاء ملامحه، فلا يعرف أيّ قدر من العمر يعطيه. عيناه الزرقاوان، بقدرتهما البصرية الكاملة تومضان بأشعة مباشرة لا يبدو أنها تمر بأية عدسة لاصقة، مما يؤكد أن الفتاء فيهما بيولوجي

وليس مصطنعاً. في مظهره، وفي سلوكه، يبدو هامان النموذج المتكامل للبشري العلمي، أوموس سايانتيفيكوس، العقلاني، الذي تعالى عن المشاعر وألقى الاحساسيس العاطفية في الادراج المهملة من مكتبه. إلا أن الذين يلازمونه في عمله في دائرة الابحاث يعرفون له وقفات، في أدق لحظات التنفيذ التكنيكي، توحي بأنه يخضع فيها لخوالج شعورية قاطعة مسار تفكيره الرياضي وملقية ضباب السهوم على زرقة عينيه. ويردّ المطلعون على سيرة حياته من رفاقه ومريديه تلك الوقفات إلى زمن معين، هو الزمن الذي فقد فيه ثالثة واحدة من مرافقاته... فقدها في حادث مفاجىء لم تتنبأ به نقاط التصالب لخطوط حساب الاحتمالات البيانية في أربعة عقول كهرضوئية تعمل ليل نهار في مكتب العالم هامان في دائرة ابحاث الترحيل بين النجوم.

منذ ذلك الزمن المعين، المضبوط باليوم والساعة، لم يشرك هامان في حياته الشخصية امرأة، أية امرأة. هل ذلك لأنه تقدم في السن، فشاخ وعجز؟... ما من أحد من تلامذته، ومن تلميذاته بصورة خاصة، اعتقد بهذا. ومع ذلك فان هاتيك التلميذات يرينه قد أغلق باب مخدعه أمام كل من سولت لها نفسها أن تأخذ بقربه مكانة مرافقته الثالثة. يحدث أحياناً أن تظن واحدة من معاوناته الفتيّات، وكلهن يجمعهن إلى جانب الذكاء ومؤهلات المعرفة الجمال الجسدي المتكامل، يحدث أحياناً أن تظن واحدة منهن أن رعايته لها تعني القرب من فراشه. فاذا بدرت منها بوادر تصرف موحٍ بما تظن ابتسم لها هامان برفق، ونقل مسار العقل الكهرضوئي الذي كان يلقّمه

لخوض كل الاختبارات والمرور بالتجارب التي اخضعت لها قبلاً من بثتهم، تحت اشرافك، إلى يابيتوس. ولقد ابتكرت أنا أيضاً، تحت اشرافك، القناة الوحيدة، وأريد منك الآن أن تسلكني فيها. لا أريد أن أضيع الوقت، فما تبقّى من زمن نافذة البث إلى مدار زحل ليس كثيراً. إبدأ بتأهيلي، إذا لم يكن اليوم ففي هذه الايام القليلة القادمة.

قال هامان: يبدو لي أنك فقدت توازن عناصر المحاكمة في تفكيرك. كل هذا من أجل سامارا... من أجل امرأة؟

فقال رامي بلهجة فيها الاحترام، وفيها الرثاء، وفيها الشعور بالغبطة:

ــ كل هذا لأني أحبها. تفكيرك يا هامان يحلق في عوالم تسمو على الحب، ولذا فاني لا ألومك إذا لم تفهمني...

بمعادلاته إلى برنامج جديد يبحث فيه لتلميذته عن فتى من معاونيه تتوافق خطوط القوى في شخصيته مع خطوط قوى شخصيتها، فاذا وجده أشار لها إليه... وربما اعطاها الرقم الحميم الذي ما أن تنقر به على لوحة الضوء على باب مخدع ذلك الفتى حتى ينفتح لها على مصراعيه مرحباً بقدومها...

كان ذلك تصرف اشتهر به هامان عند اصدقائه وزملائه. وإلى هذه الشهرة ترجع الرسالة التي تلقاها هذا العالم عقب انتهائه من عرضه التاريخي عن خطة البث إلى نطاق زحل وقمره العاشر كما قررتها دائرة الترحيل بين النجوم. انها رسالة وجهها إليه زميل قديم في دائرة الضوئيات، تقول كلماتها: لم تأت في محاضرتك على ذكر لطريقتك التي سمعت بها وأعجبتني في معاملة شباب هذا الجيل. الفتيات نسين الانوثة، والشباب معجبون بأنفسهم. أرسل إليك سامارا، ابنتي، لعل أحد عقولك الكهرضوئية يجد لها سعادتها، فقد اعيتني يا هامان...

ـ ٣ ـ

كان إلى جانب هامان، عندما تبلغ تلك الرسالة مرتسمة أحرفها على لوحة التخاطب أمامه، أقرب معاونيه إليه وأشبههم به، وهو الباحث رامي. قال رامي:

ــ هل عندك وقت تضيعه في ارضاء نزوات آباء ضاقوا ذرعاً بسلوك بناتهم؟ سامارا هذه؟!

ابتسم هامان وقال: لعلك صدقت ما قاله زميلي القديم! انها وسيلة لادخال ابنته إلى دائرتنا. سامارا، اعرفها منذ الصغر، وأعرف ما حوته التقارير عن مؤهلاتها حين شبت. ستنجح في الاختبارات وستملأ شروطنا الخاصة.

هز الباحث الشاب رأسه كأن شكاً يخامره في ما قاله استاذه العالم، الذي كان له بمثابة الاب. حين يقف الاثنان، العالم والباحث، أمام منصة التخاطب بعيد المدى يتبادر إلى ذهن الرائي أنهما أب وابنه. الطول واحد، وتقاطيع الوجهين متشابهة. لا بد أن المكونات الإنسالية عند والدي كل منهما قد اخضعت لنفس الاساليب البيولوجية في الاصطفاء والتوجيه، وان كلاً منهما، قبل

الولادة، تلقّى في حبله السرّي نفس كميات الاوكسيجين المشع حسب برنامج تاهاوانا لتصنيف الاجنة. إلا أن طرق التنظيم الولادي المتقدمة لم تمح كل الخصائص الشخصية للمورثات في صبغيات خلايا تكوين الرجلين: فبينما بشرة العالم بيضاء موردة وعيناه زرقاوان واللمعة الذهبية في بياض شعره توحي بشقرته قبل أن يشيب، تُرى بشرة رامي سمراء نحاسية وعيناه الواسعتان خضراوين ولمة رأسه الكثيفة في لون الليل الحالك.

عاد هامان إلى الكلام عن ابنة صديقه بعد أن انشغل لدقيقة أو دقيقتين في تتبع معادلات راحت تعرضها لعينيه شاشة أحد العقول الكهرضوئية، قال:

ـ أعرف ما تطمح إليه سامارا. رغبتها ليست في العمل في دائرتنا هنا، بل انها تريد أن نرحلها إلى مخابرنا حول زحل، إلى يابيتوس.

قال رامي بلهجة المستنكر لطموح هذه الفتاة التي لم يسبق له أن سمع باسمها:

ـ كأنك رأيتها قبل الآن يا هامان!

قال العالم: كلمتني من مخبر أبيها، أمس. وهي الآن في طريقها الينا.

وقبل أن يعقّب رامي بكلمة سطع في جو القاعة ضوء بنفسجي

يشير إلى أن قادماً قد اخترق نطاق المخابر العاملة. وبرزت، بعد ثوان، من المدخل، سامارا وعلى شفتيها ابتسامة هادئة، لا يرتسم على ملامحها أي انفعال، مما يوحي بأن التردد على معاهد الابحاث فوق العالية من مألوفاتها. صبية دقيقة الملامح ذات قد نحيل، لدنة الاعضاء، لا يبدو على تكوينها أثر التدريب الرياضي المنهجي والمعالجة الهورمونية الذي طبع افراد العنصر النسائي في دائرة أبحاث الترحيل بين النجوم بطابع موحد، طابع التناسق الاندروجيني، المسترجل. قال هامان للفتاة بعد أن ردّ على تحيتها بتودد:

ـ هذا رامي. سمعت بلا شك بأبحاثه. نحن ندين له بتحقيق فكرة القناة الوحيدة لبث المادة ثلاثية الابعاد.

مدت سامارا يدها إلى الباحث الشاب، فاستدار هذا في مقعده ليتلقى تحيتها. قالت لهامان وقد اتسعت ابتسامتها:

ـ هل هو متعجرف؟ انه يمد يده دون أن يتحرك من مكانه. معك الحق يا رامي في اعجابك بنفسك... لولا القناة الوحيدة لتبددت مادة المبثوثين على مختلف المستقبلات في مخابر الكواكب البعيدة، ولكان حظي ضئيلاً في الوصول سالمة إلى مختبر بابيتوس...

قال رامي، دون أن يخفي امتعاضه من هذا الثناء المبطن بالتقريع: أنت تحلمين بالسفر إلى بابيتوس. يجب أن تعرفي قبل ذلك أن العودة إلى بيت أبيك، على كوكبنا الارضي، لن تتاح لك قبل أن يتم زحل وتوابعه الدورة المقبلة حول الشمس. اعني قبل تسعة

وعشرين عاماً وبضعة شهور. هذا عدا مخاطر تحولك من مادة حية إلى اشعاعات مبثوثة. أما تخافين؟

قالت، وهي تنقل طرفها بين العالم والباحث: اني أثق بهامان... وأثق بك.

ثم ابتسمت قبل أن تضيف: الخوف يأتي من الجهل. وأنا على معرفة بأبحاثكم وبتجاربكم وانجازاتكم. في مخبركم على يابيتوس، الدائر حول زحل في مدار نصف قطره ثلاثة ملايين وخمسمائة وثلاثة وستين الف كيلومتر، جهاز استقبال مكتمل تلقّى قبلي نماذج من الصخور والمواد العضوية وصلت إليه على شكل اشعاعات مبثوثة فأعاد تحويلها إلى صخور ونفس المواد العضوية، لم ينقص من تكوينها أو يغير مكانه في تكوينها بروتون واحد. وأرسلتم إليه بعد ذلك سلاسل من الحموض الآمينية، وفيروسات، وفئران مخابر، وشمبانزي، ثم متطوعين من الشاذين جنسياً ممن لم تفلح المعالجات البيوكيميائية في تقويم سلوكهم...

فقاطعها رامي، وتطلع إلى أستاذه بنظرة المعاتب، قائلاً: من أخبرها بهذا؟

فابتسم هامان وهو يقول: هذه ابسط معلوماتها. انها تعرف كذلك أن نافذة البث إلى توابع زحل ونطاقه لن تظل مفتوحة إلى أبعد من بضعة شهور، واننا لن نستطيع أن نبث أحداً إلى يابيتوس بعد ذلك.

واذ رأى أن رامي لا يزال يحدجه بنظرة العتاب الناقم، ضحك وقال مجيباً على سؤاله عمن زود الفتاة بالمعلومات:

ـ لست أنا على كل حال. ثقة أبيها بها كبيرة، ومركزه في الهيئة العليا يبيح له أن يبوح بما يراه مناسباً لمن يراه مستحقاً. لا تقطب حاجبيك هكذا يا رامي... ما دامت سامارا مصرة على أن تُبَثّ مع معرفتها بالظروف والمخاطر فستتولى أنت تهيئتها لذلك. أنت الذي تتولى تحويل مادتها إلى طاقة قابلة للبث. هذا قراري.

فتطلع رامي إلى الفتاة بنظرة المتفحص. أحس ببعض النقمة عليها أن وجد نفسه في موقف ضعف أمامها، ولكنه لم يملك إلا أن يعترف بينه وبين ذاته أنها أنثى جميلة. ليست هي في تركيب من يحب أن يدخل في فراشه فيجدها عارية فيه، اذ انها قمحية البشرة وهو يؤثر المفرطات في الشقرة أو، على الأقل، ذوات السمرة البرونزية. شفتاها رقيقتان، وقدها أنحل مما يتوق هو إلى أن يضمه ويحيط به ذراعيه... ومع ذلك فانها جميلة! قال، محاولاً أن يتظرف في هذه المرة:

ـ سأفعل. أنت يا هامان غير مشفق على هذا التكوين الدقيق من أن يتفكك إلى ذرات في برودة ما تحت الصفر المطلق لتتحول بعدئذ إلى فوتونات في اسطوانات مفاعلاتنا التي تعطيها سرعة ما فوق سرعة النور. اطمئني يا سامارا... ستصلين إلى مخبرنا في يابيتوس في ساعة وربع الساعة، شرط أن تتحملي عمليات التحويل إلى اشعاع قابل للبث.

قالت الفتاة: أدرك أنها عمليات مضنية، ولكني قادرة على تحملها.

قال الباحث الشاب: اذن لن نضيعَ وقتاً. أمامنا أربع وستون ساعة قبل بدء الاختبارات. تجدين التعليمات في كراس ينتظرك عند المدخل. اشدد على أن تبتعدي عن تناول أي غذاء مشع في هذه الفترة.

وبدا أن سامارا على الرغم من ثقتها بنفسها ومن تصميمها لم تطمح إلى أن تتحقق رغبتها بهذه السرعة. فقد تحولت عن رامي منطلقة إلى العالم، فطوقت كتفيه بذراعيه واطبقت بشفتيها على شفتيه بقبلة طويلة قبل أن تهتف قائلة:

ـ شكراً... شكراً يا هامان.

فقطب العالم الوقور ما بين حاجبيه وربت على كتفي الفتاة وهو يقول:

ـ حسناً فعلت بهذه القبلة. أكثر من ستجدينهم في محطتنا في يابيتوس شاذون جنسياً، لا يتقبلون قبلة مثل هذه ولا يستحقونها. عليك الآن في السير وراء رامي. انه هو مديرك. لا تنخدعي بخضرة عينيه فتظنين بهما الرأفة. انه في بعض الاحيان بربري جلف. ولا تعتمدي عليّ، فقد نفضت يدي منك... ربما على الرغم مني!

نطق هامان بجملته الأخيرة مازحاً، وهو يتصنع الاسى. إلا أن نبرة في صوته أوحت إلى رامي، وربما للفتاة، بأن ذلك الأسى ليس كله مصطنعاً، وأن أثراً من الحزن الحقيقي قد تسرب إليه.

ـ ٤ ـ

من سامارا إلى أبيها، عالم الضوئيات:

«... اني لا أزال في البدايات. حيث يقول لي رامي أني أجد مشقة، وعناء، وألماً، أجد لذة. لذة المعرفة... لذة عيش المعرفة. أترقب اللحظة التي أدخل فيها حجرة التهيئة الاولى، تلك التي درجة حرارتها ٢٧٣,١٥ تحت درجة تجمد الماء المقطر، استعداد للتحول إلى عناصر تكويني البسيطة. لا، لست خائفة. ولكني قلقة من فقدان الادراك، ادراكي لذاتي. سألت هامان عن هذا، وهل أظل مدركة لتحولي من مركبات عضوية إلى مجموعة عناصر، ومن عناصر بسيطة إلى ذرات مفككة؟ قال لي بجدة: اسألي رامي! احسبه لا يريد أن يضيع وقتاً معي. أم لعله لا يريدني أن أفتتن به كما افتتنت به كل فتيات دائرة الابحاث، كما أخبرتني نورا أمس، فهو يحيلني دوماً إلى رامي...

وعن رامي... ستضحك من بنتك. صحيح ان هامان، صديقك، جدير بأن تنجذب إليه كل فتاة وبأن تحلم بقضاء لياليها في مخدعه، إلا أن عيني رامي تعجباني. انهما خضراوان، تهدئان قلقي وتعطيانني

أملاً. أمس قلت لهامان، وأنا أذكر ما هو معروف عنه من استشارته العقول الكهرضوئية في تصالب خطوط القوى عند فتياته وفتيانه، قلت له: ما رأيك في أن تدقق في خطوط القوى لشخصيتينا، أنا ورامي، فاني أجد في نفسي ميلاً إليه؟ فقطب صاحبك في وجهي وقال: ستدخلين قريباً جداً في مرحلة التحويل إلى أشعة مبثوثة، فدعي هذه السخافات البسيكوباتية لفتيات ليس لهن أب مثل أبيك...

هل في هذا الطلب مني اساءة اليك يا أبي؟ إضحك مني إذا شئت».

— ٥ —

من حديث هامان إلى نفسه، منقولاً من المسجلات الليلية:

«يبدو اني شخت. واذا استمرت الحال على هذا فان مردودي من الانتاج العلمي لن يعود متناسباً مع طاقتي وجهدي، وعليّ حينئذ أن أنسحب إلى معهد الاستشارات تاركاً دائرة الابحاث إلى من هو أكثر مني ايجابية...

انها سامارا. تأتيني في كل مساء لتعدد أمامي الاختبارات التي أجراها عليها رامي والتمارين التي أجراها لها. تأخذ وقتي، وعليّ أن أردها في كل مرة إلى رامي. اعترف بأني لا أفعل هذا دون جهد. بصعوبة أتغلب على ميل نفسي إلى استبقائها وإلى اعطائها وقتاً أكثر. ثم انها لا تنسى، في كل مساء، أن تقول لي أن عيني رامي خضراوان. ما دخل هذا في غرفة التبريد إلى ما دون الصفر المطلق، وفي التحويل من عناصر إلى ذرات إلى فوتونات؟!».

ـ ٦ ـ

من حديث هامان إلى نفسه في ليلة أخرى:

«... سألتني مجدداً أن أبحث لها في تلائم خطوط القوى في شخصيتها مع خطوط قوى شخصيته هو... رامي. هذه المرة لم تطلب مني ذاك مازحة. جاءتني مجهدة بعد اختبار عنيف وقالت انه يهيؤها للنزول إلى البرودة المفرطة، وانها تريد أن تعرف ذلك قبل أن يبثها إلى يابيتوس، في مدار زحل. تريد أن تعرف... وهو، ألا يريد أن يعرف؟».

— ٧ —

وفي ليلة أخرى:

«هي تلح، وأنا أحاول صرفها عن طلبها المضحك. هل أقول لها أنها تضايقني بهذا الطلب؟ لن أكذب اذا قلت لها ذلك. لماذا تحدثني عن خضرة عينيه كأن لا جمال إلا في العيون الخضر؟ ليس أجمل من عينيها العسليتين. هل بدأت أضعف، لأني بدأت أشيخ؟

يجب أن أعترف بأن حكاية تقصي خطوط القوى في العقل الكهرضوئي قد اخترعتها، ابتدعتها، لأتخلص من فتيات دائرة الابحاث اللواتي يضايقنني. وحين تطلب مني سامارا أن أطبق عليها ما كررته على زميلاتها أتضايق. ما معنى هذا؟

لنفرض... لنفرض اني وجدت الخطوط، في شخصيتها وشخصيته، تتصالب في نقاط التوافق، فماذا يفيدها هذا؟ حتماً لن تجد طريقها إلى سريره في مخدع نومه. فبعد ستة وثمانين ساعة واثنتين وعشرين دقيقة من هذه اللحظة سيتلقى جهاز الاستقبال في محطتنا في يابيتوس ذرات جسدها على شكل فوتونات ليعيد تكوينها إلى ذرات

فعناصر ثم إلى سامارا ذات العينين العسليتين والقد الاهيف، وذلك على بعد مليار ومائتين وتسعة وستين مليوناً وأربعة وعشرين ألفاً من الكيلومترات من قاعة التجارب في دائرتنا للابحاث على كوكبنا الأرضي... اعني عن رامي!

لا... خطوط القوى هذه لن أحسبها».

— ٨ —

في أواخر القرن الفائت، اعني أواخر القرن العشرين، حين كان بنو البشر يتناقلون الاخبار والافكار بوسائل معقدة ومربكة يسمونها الصحف، وهي مساحات من الورق مسجل عليها الكلام بحروف ملونة، سوداء في الغالب... في ذلك الزمن ورد في واحدة من تلك الوسائل جواب من مختص بالسلوك الاجتماعي، عالم بالنفس، على سؤال وجه إليه حول أسباب الكوارث التي تلحق بالجنس الانساني من جراء الخلافات الجماعية، تلك الكوارث التي تدعى حروباً. في جوابه على السؤال ردّ المختص السبب إلى التفاوت بين نمو جهاز الفكر في الكائن البشري، وهو العقل، ونمو جهاز الشعور في هذا الكائن، وهو النفس. فالعقل ينمو ويتطور باستيعابه وبابداعه المتمثلين بالعلم، بينما تظل النفس الانسانية مرتبطة بالغرائز البدائية لا تملك فكاكاً من قيودها. وقال المختص لمحاوره: خذ قضيبين متساويين بالطول والثخن، احدهما نحاسي والآخر من الحديد، والصقهما ببعضهما على طولهما ثم الحمهما، تحصل على قضيب واحد متماسك ومستقيم. لنفرض انك عرضت هذا القضيب المزدوج التركيب إلى منبع

حروري. ان اختلاف عامل التمدد بالحرارة في النحاس عنه في الحديد يجعل كلاً من شطري القضيب يتمدد بقدر يختلف عن قدر تمدد الآخر، وينتهي ذلك بالقضيب إلى الانحناء ثم إلى التفكك وربما إلى الانقصاف. وهذا، كما قال المختص، تفسير اختلال التوازن في السلوك الانساني أمام مؤثرات يستجيب لها كل من مكوني افراد الجنس البشري، ويعني العقل والنفس، بشكل يختلف عن استجابة الآخر، فتسبب استجاباتهما المتباينة المآسي الفردية الصغيرة لعناصر هذا الجنس مثلما تسبب كوارثه الجماعية.

هذه مقولة أوردها ذلك المختص منذ حوالي مائة عام ونقلتها تلك الوسيلة من وسائل بث المعلومات، وعلى التحقيق نقلتها صحيفة صادرة في يوم من أيام عام ١٩٨٣ من ميلاد المسيح. ويبدو أن المقولة نفسها لا تزال صادقة في هذا الزمن، في عام ٢٠٨٣ بالذات، على الرغم من تدخل العلم الحديث في تطور النفس البشرية عن طريق أساليب التربية المبرمجة والمدعمة بما انتجته أبحاث الزمن الحاضر من المبدلات البيوكيميائية للسلوك. لا تزال المقولة صادقة، اذا لم يكن في كل الحالات ففي بعض الحالات التي ظلت بها النفس الانسانية عصية على البرمجة وعلى التبديل السلوكي... ومنها حالة هذا الثالوث المؤلف من هامان وسامارا ورامي.

ـ ٩ ـ

من كلام رامي، أو لعلها خواطره، بعد عملية الارسال:

«ـ اجتازت كل الاختبارات وتحملتْ كل التجارب، وكنت بذلك سعيداً... سعيداً لسعادتها. وعندما سارت لوحدها نحو آخر المفاعلات فائقة البرودة في طريق التحول الكبير الذي سيطبق على كيانها المادي الحي، انتابني الضعف الذي ما زلت ألوم نفسي عليه. أنا مبتكر القناة الوحيدة وقد سلكت فيها، بعد تحويلها في سلسلة أجهزة الارسال إلى فوتونات، الجمادات والاحياء ابتداء من ذرة الهيليوم وانتهاء بأفراد الطاقم المقيم في مخبرنا في يابيتوس مروراً بالصخور والفيروسات والجمل ذي السنامين... أنا رامي، أي خوف انتابني من أن تعجز هذه القناة عن استيعاب الفوتونات التي تحولت اليها ذرات عناصر أعضاء جسد سامارا؟! ماذا لو... ماذا لو... ماذا لو! يا له من شك مريع ذاك الذي تسلل إلى وجداني وأنا أرى سامارا تتقدم، بعد أن قبلتنا جميعاً، أباها وهامان وأنا، تتقدم نحو الباب السيليكوني لمفاعل التبريد!

شك مريع تكشف، في دقائق قليلة، عن وهم لا مبرر له. ها

هي الآن، وقد نقلتها القناة الوحيدة أمواجاً نورانية ثم أعادها الجهاز المستقبل في يابيتوس انسانة سوية، تنقل خطاها في حجرات مخبرنا هناك... هناك، على بعد (١ ٢٦٩ ٠٢٤ ٠٠٠) كيلومتراً، وتخاطبنا من هناك. بل انها تخاطبني أنا، رامي، فيخترق صوتها الاثير أمواجاً كهرطيسية تحولها أجهزتنا إلى صوت سامارا برنته البلورية الصافية، فكأني أحس بأنفاسها تلهب صفحة خدي حين همست في أذني، بعد قبلتها المسكرة: لا تقلق عليّ... أحبك!».

ـ ١٠ ـ

عودة إلى حديث هامان لنفسه:

«ــ ضعفت. لم يعد لي شك في ذلك. أحسست بالضيق يمسك عليّ انفاسي حين رأيتها، بعد أن قبلت اباها وقبلتني، تطبق شفتيها على شفتيه ثم سمعتها، على الرغم من خفوت صوتها، تقول له: أحبك!

تحبه... انا الاحمق الذي هيأتها لذلك. أنا الأحمق. تعاليت عليها، وعاملتها بما عاملت به أولئك المتهافتات على الحظوة مني الراغبات في حلول محل رفيقتي الاخيرة. وعندما تبينت أنها من طبيعة أخرى، ومن تكوين جسدي ونفسي آخر، تعلقت ميولي بها فأحببتها. حدث هذا بعد فوات الاوان، بعد أن سحرت بعيني رامي الخضراوين.

والآن؟ الآن لا يبرد من الحرقة في صدري على فراقها إلا علمي بأن هذا الفراق قد جعل بينها وبين فراش رامي في غرفته في مساكن الباحثين مسافة تفوق المليار وربع المليار من الكيلومترات في الفضاء ما بين النجوم...

ضعفت. أقر بهذا على نفسي. في منجزات الترحيل بين النجوم والابحاث التي ادت الى تلك المنجزات، أنا رأس الحربة. وأنا الذي أصبح اسمه رمزاً للتقدم الحضاري في العشرة التاسعة من هذا القرن، الواحد والعشرين الميلادي. منزلتي عند العلميين ليس فوقها منزلة، واكبار معاوني لي ليس له حدود، وثقتي بنفسي لا تقل عن هذا وتلك... الا ان سامارا كشفتني وعرّفتني بضعفي. تبينت أمامها أني في هذا الضعف انتسب إلى الجيل الذي ولدت فيه، جيل ابناء العشرة الاولى من هذا القرن.

كيف رضيت بارسال سامارا بعيداً بعيداً... إلى يابيتوس؟ ربما كان هذا هو جنوني الصحيح. أما كان ممكناً، لو انها بقيت معي على كوكب الارض، ان تصبح لي الرفيقة الرابعة، على الرغم من أن عينيّ زرقاوان؟».

— ١١ —

«احبك»، قالتها سامارا لرامي.

«تحبني»، قالها رامي لنفسه.

«احببتها»، رددها هامان في حواره مع ذاته.

كل هذه افعال تصف الحب في ازمنته المختلفة. والحب، كما يعرف كثير منكم، عامل من عوامل التكوين العاطفي للنفس البشرية لا يزال ذا فعالية مؤثرة فيها لانها، أي النفس، لم تتطور في المنحى الايجابي الذي تطور فيه العقل في هذا الزمن، وذلك على الرغم من اساليب التربية المبرمجة وتطبيقاتها الموجهة نحو هذا المنحى. كل ما توصل إليه التدخل العلمي في مجال عامل الحب هذا هو دراسة تأثيره وكشف مساراته بصورة أصبح معها من الممكن رسم هذه المسارات بشكل خطوط قوى بيانية تستطيع العقول الكهرضوئية أن تبين نقاط تلاقيها وتعين زوايا تباعدها. وهذا ما كان يعهد به هامان، أحياناً، إلى عقول معهد الابحاث لحل مشاكل معاوناته ومعاونيه المتورطات والمتورطين في متاهات ذلك العالم العاطفي.

ونحن لا نعرف على التأكيد سبب احجام هامان عن تطبيق طريقته هذه على ما أخذ يقلقه، ويؤرقه، في قضية المشاعر التي تربط بين الثلاثة، هو ورامي وسامارا. لعله احجم، كما حدث نفسه عن نفسه، لانه شاخ وضعف فلم يعد قادراً على تحمل الحقيقة وعلى القبول بواقع الحقيقة، كما هو واجب من هو في منزلته بين العلميين المهيمنين على الحقيقة معرفة وتطبيقاً. ولعله لو فعل لرسم العقل الكهرضوئي لعينيه محصلتي خطوط قوى الفتاة ابنة صديقة والباحث تلميذه كمسارين لولبيين، ملتويين أحدهما على الآخر، متعانقين كتعانق سلسلتي الجذور الآمينية في ذرة د. ن. آ.، حامض الديزوكسي ريبونوكلييك. أما مسار خطوط قوى شخصيته هو فسيبدو له مستقيماً، منحرفاً عن ذينك المسارين المتعانقين بزاوية تزداد انحرافاً بازدياد البعد بين مخابر دائرة الابحاث على سطح كوكب الارض والجهاز المستقبل على تابع زحل الذي بثت الفتاة إليه، يابيتوس.

من أقوال آبائنا الاولين في القرون السالفة تشبيههم البعاد بالنسبة للحب بالريح بالنسبة للنار. نسمة الريح الخفيفة تزيد النار اشتعالاً، والريح القوية تخمد الجذوة المشتعلة وتحيلها رماداً. ولو قسنا بعد سامارا عن عاشقيها بمقاييس أولئك الاولين الكيلومترية لحكمنا بخمود جوى الحب في صدور هذا الثلاثي منذ الساعة الاولى لارسال الفتاة الجميلة إلى يابيتوس. فبعد تلك الساعة أصبح بعدها عن العاشقين مقدراً بمئات الملايين من الكيلومترات بل بآلافها... تستغرق أسرع

مركباتهم في قطعها ما يزيد عن الخمسين عاماً، إذا عرفنا أن تلك المركبات كانت تنطلق بسرعة ثمانية كيلومترات في الثانية، وحين تفرط في السرعة تبلغ، في الثانية ١١,٣ كيلومتراً! إلا أن متيمينا الثلاثة يعيشون في عصرنا الحاضر، في القرن الواحد والعشرين وفي أواخره، في زمن الترحيل بين النجوم. في زمنهم هذا لم يعد زحل ونطاقه وتوابعه، وبينها يابيتوس، تبعد عن كوكبنا الأرضي أكثر من ساعة وربع الساعة. فلا عجب أن يؤثر هذا البعد المختصر زمنياً في عواطف ابطال قصتنا ما تؤثر به النسمة الخفيفة على الجذوة المشتعلة، فتنعشها وتزيدها وقداً والتهاباً...

وهذا ما حدث بالضبط في مشاعر كل من افراد الثلاثي. هامان، كما رأينا، أصبح موزعاً بين عذاب نفسه بهوى عقيم وبين عزائه لتلك النفس في أن المحبوبة قد بعدت فلن يظفر بهواها غيره. ورامي الذي عادت به همسة من سامارا إلى تحليل عواطفه فاكتشف أن تعلقه بالفتاة كان وراء حماسته في تأمين بثها إلى يابيتوس في أكمل الشروط، أصبح ينقم على نفسه انه هو الذي أبعد الحبيبة وقذفها إلى قرابة مليار وثلاثمائة مليون كيلومتر في الفضاء بين الكواكب. أما سامارا نفسها، فهي أوضح رؤية من كلا الرجلين لمشاعرها، واجرأ تعبيراً عما تحس به وأصرح فيما تريده. دليل ذلك انها أخذت تشغل نصف وقت التخاطب المحدد لاتصال مخبر الدراسات في يابيتوس مع دائرة الابحاث في كوب الارض، بكلام شخصي تصف به شوقها إلى رامي وحلمها في أن تراه إلى جانبها على هذا التابع الدائر حول زحل.

أخذت سامارا تشغل بهذا الكلام نصف الوقت في المرتين النظاميتين المحددتين يومياً. وفي بعض المرات استبدت بوقت غير مخصص لها وراحت تنادي فيه رامي. واحنق هذا التجاوز على النظم المرسومة هامان، فسجل للمرة الاولى على الصفحة المضيئة في عدد من منصات دائرة الترحيل كلمات تقريع لكل من رامي وسامارا لسوء تصرفهما وتبديدهما طاقة علمية جوهرية في أحاديث نفسية، سطحية وتافهة.

ـ ١٢ ـ

لم تفلح كلمات التقريع في صرف سامارا عن أحاديثها غير المرتبطة بمهمتها العلمية، مع رامي، ومن ردود رامي عليها. نستطيع أن نسمي تلك الاحاديث نجوى متبادلة بين حبيبين عبر الافضية بين الكواكب، لولا أن تلك الاحاديث لم تقتصر على الحبيبين. اذا اصبح يشاركهما فيها، وربما على رغمه، العالم هامان. فهو اذا صرف نظره عن سامارا التي ينقل الجهاز المستقبل صورتها له وصم اذنيه عن سماع صوتها، وجد نفسه محكوماً بالاطلاع على عباراتها بالفاظها حين يستعرض في نهاية يوم العمل تقارير محطة الارسال في يابيتوس. لا مناص له في كل ليلة من أن يقع في ثنايا المعادلات الرياضية وتعرجات الخطوط البيانية على كلمات الفتاة العاشقة التي تحوّل جداول الارقام والحسابات الفلكية الى قصائد شوق ملتهب يزداد وقدها يوماً بعد يوم، ويزداد لها حنق العالم على تصرف بنت صديقه وعلى استجابة تلميذه لهذا التصرف، أو لتنعمه بهذا التصرف، يوماً بعد يوم.

ما الذي يقوى به هامان على الفتاة التي تتصرف بهذا الشكل؟

انها الآن منه على بعد متزايد، أقل قيمة له مليار ومائتان وسبعون مليون كيلومتر، في رحلة مبرمجة على تسعة وعشرين عاماً ومائة وسبعة وستين يوماً أرضياً. فهو لا يملك، ولا يحق له، أن يعيدها إلى مخابر دائرة الابحاث على كوكب الارض قبل انقضاء أمد البرنامج. وتراه، لو ملك ذلك، راغباً في اعادتها إلى الأرض لتلقي بنفسها بين ذراعي رامي كما تتمنى هي ذلك وتعبر عنه بصراحة تتمادى بتمادي أحاديث شوقها الملتهب؟!

حنق العالم هامان الذي لم يكن له متنفس على العاشقة انقلب على التلميذ العاشق، رامي الذي كانت تربطه به، قبل أن تتدخل سامارا بينهما، رابطة أب بابنه. لم يكن قادراً على انكار مكانة الفتى بين باحثي ادارة الترحيل ولا على الاستهانة بانجازاته، ولكنه لم يعد قادراً على أن يتلقاه بنفس الحنو والعاطفة الابوية التي كان يتلقاه بها قبلاً. وذلك تبدل لم يخف على رامي، ولكنه كان من الانصاف ومن التقدير بحيث لم يلق لوماً فيه على أستاذه، بل وجد له فيه العذر في تجاوزاته هو وسامارا على الاعراف المتبعة في حلقات الدراسات الكونية، باتخاذهما عناصر البحث العلمي مطية لهواهما الشخصي.

وجاء يوم قرر فيه رامي، وهو يرى في معاملة هامان له جفاء يقارب القطيعة، أن يفضي إلى العالم بكل مشاعره، من هوى لا يملك الفكاك من أسره، ومن شعور بالذنب، ومن اقرار بالخطأ في التصرف، وأن يطلب إليه أن يشير عليه بالحلول التي يرتأيها لواقعه في ضوء معرفته السامية وعقله الراجح وتفكيره الموضوعي.

ـ ١٣ ـ

قال رامي وهو يتحدث إلى استاذه العالم:

ـ اشعر بالضعف أمامك يا هامان. فعلى الرغم من أني، لفارق الزمن بين جيلينا، قد تلقيت في صباي من دورات التربية المبرمجة أكثر مما تلقيته أنت في صباك، أجدني عاجزاً عن التباعد عن المشاعر الغريزية، التي حقنتنا تلك التربية بمصول المناعات عليها. على المشاعر الغريزية أعني. معك الحق في أن تبعدني عن اهتمامك وان تجفوني. خيبت ظنك وارتبطت بالخصوصيات النفسية، مما لا يجدر بتلميذ مقرب منك. ولكني لا أستطيع أن أرائي وأخفي أحاسيسي... اني متعلق بسامارا تعلقاً لا حدود له. أنت مسؤول عن هذا. لا أقول ذاك لألومك بل لاشكرك... منحني هذا التعلق سعادة لا تفوقها سعادة، لولا...

وقطع رامي كلامه كالمتردد، فتطلع إليه هامان بنظرة جامدة، تبدو خلواً من كل محتوى حسي، وسأل:

ـ لولا ماذا؟

قال الشاب: لولا نقمة أشعر بها على نفسي أني ابعدتها، بيدي،

عني جسدياً في اللحظة التي كانت فيها أقرب ما تكون إلى روحي. وأنت كذلك مسؤول عن هذا. أليس هو قرارك أن أتولى أنا بثها إلى يابيتوس؟

قال هامان، بلهجة من نفد صبره: ماذا تريد مني؟

فأجابه رامي: أن تفتح لنا طريق الاجتماع، أنا وسامارا. أريدها لي... امرأة لي!

فسكت هامان لحظة. ولما عاد إلى الكلام راح يلفظ كلماته ببطء كأنه يتلذذ بتقرير معانيها. قال:

— انها في يابيتوس. أنت الذي بثثتها وتوليت برمجة رحلتها التي لن تنتهي قبل أن يتم زحل دورة كاملة له حول الشمس... اعني قبل ثلاثين عاماً تنقص بضعة شهور. لا يمكن لاجهزة يابيتوس المرسلة أن تعيد بثها إلينا قبل ذلك.

قال رامي: اعرف هذا. ونحن، سامارا وأنا، نقبل به. هي لن تعود قبل ختام برنامجها، ولكني شخصياً لست مرتبطاً ببرمجة ذات موعد محدد. ما أطلبه منك هو أن تبثني أنا إليها... إلى يابيتوس.

فوجىء العالم بهذا الطلب من تلميذه، فقال بلهجة أقرب ما تكون إلى الاستنكار:

— أنت؟!

قال رامي: نعم. أرجوك، رحلني إلى يابيتوس. أنا على استعداد

ـ ١٤ ـ

ليس صحيحاً ان هامان لا يفهم رامي ومشاعره ودوافعه. وليس صحيحاً كذلك ان تفكيره، تفكير هامان نعني، يفكر في أجواء تسمو على عاطفة الحب.

ففي الفترة الاخيرة، في الايام المتتالية التي اعقبت انتقال سامارا إلى يابيتوس، أسفّ تفكير هذا الانسان العلمي الخطير، ملتقى الاضواء في محافل الدراسات والانجازات المفرطة التعقيد، حتى انغمس في دنيا المشاعر وعالم العواطف والاحساسيس المعنوية. نحن نقول أسفّ، على الرغم من أن بعضاً من الناس يعتبر هذا الاسفاف سمواً. ولعلنا نوافق بعض الناس اولئك في اعتبارهم لو أن تحوّل تفكير هامان كان إلى عاطفة الحب وحدها. ذلك أن هذا التفكير قد تحوّل، فيما عدا الحب، إلى الاسى على ما فات والحرقة على ما لم ينله صاحبه، ثم إلى الحقد الوضيع الذي لا يليق بشخص متميز مثله... الحقد على الفتى رامي لانه نعم بحب حبيب حرم هو منه.

واذا كان هامان قد عزف في أول الامر عن شهود تناجي الحبيبين عبر الافضية بين الكواكب في صورة وصوت مباشرين،

مكتفياً بالاطلاع على فحوى ذلك التناجي في تضاعيف محاضر الارسال والاستقبال بين دائرة الابحاث ومخابر يابيتوس، فانه لم يلبث أن وجد نفسه مدفوعاً إلى رؤيتهما بعينيه وسماعهما باذنيه، على لوحات المنصات في قاعات العمل، وهما يتطارحان الصبابة ويشتكيان من طول فترة التباعد التي تحول دون لقائهما. وكان هو، هامان، بين لذع الفؤاد بما يسمع وما يرى وبين برد التشفي بمعرفته ان الوصال الذي يتحرق في انتظاره الحبيبان امنية مستحيلة... مستحيلة على الاقل في الوقت القريب.

ولكن... ولكن هذا هو تلميذه يحطم المنهج العقلاني ويطلب أن يُبث إلى يابيتوس، إلى حيث تتلقاه سامارا مفتوحة الذراعين متلعة العنق والصدر مستسلمة الجسد! إنه، فيما يأمل، مجنون. من يملك أن يسمح ببثه، ومن يستطيع بثه غير هامان؟ ومن يشق بوصوله إلى يابيتوس غير هامان؟... ومع ذلك، فانه يطلب ما يطلب من هامان!

ـ ١٥ ـ

تحولت الايام التي اعقبت ذلك الطلب الجريء من رامي إلى استاذه إلى ساحة تضاربت فيها مشاعر ثلاثي قصتنا وأحاسيسهم تضارب الحمولات الالكترونية والكهرطيسية والكهرضوئية في مجالات التجارب الكونية.

هذه، مثلاً، نداءات سامارا إلى رامي، وما توجهت الفتاة قط بنداءاتها إلى هامان. لقد أخذت تلك النداءات تحتل من برامج التخاطب على الموجات بالغة القصر، وكلها من فئة المليمتر طولاً، بين محطتي دائرة الابحاث في الارض وعلى يابيتوس، أقول أخذت تحتل مساحات تزداد اتساعاً كل يوم ويزداد محمولها من الشوق والتوق. لعله جو التابع الدوار يابيتوس هو الذي حوّل هذه الفتاة المفرطة الذكاء من باحثة نصيب العقلانية في تفكيرها ٩٦,٦٪، كما هو مثبت في جدول مؤهلاتها، إلى كائن عاطفي تتضاءل العقلانية في تصرفاته إلى نسبة مئوية دنيا. ولعل ذلك الجو هو الذي أعطاها هذه الجرأة وفصاحة التعبير في التصريح بميولها الروحية وشهواتها الجسدية...

نداءات صارخة، ملتهبة، وجارحة، وما كان يسمعها سوى رامي وأستاذه، ولا بد لكل منهما أن يتأثر بها تأثيراً عميقاً. وواضح أن مسار التأثر عند كل منهما كان يعارض الآخر في اتجاهه معارضة قطبية. فبينما يندفع رامي، مدفوعاً بتلك النداءات، في الحاح على المعلم أن يلبي رغبته في الرحيل إلى يابيتوس، يتصلب هامان مدفوعاً بالحنق الذي تؤجحه في صدره النداءات ذاتها مقرراً أن يظل لقاء الفتاة على تابع زحل مستحيلاً. لا... كان هامان يقول لنفسه... لا، لم يبق من النافذة الزمنية لاطلاق المادة ثلاثية الابعاد إلى يابيتوس غير أسابيع قليلة، ولن أسمح لهذا الصبي أن يعبرها مبثوثاً إلى حيث يحتضن سامارا بذراعيه الطويلتين!

ويلح رامي، ويلح. ويا عجبا!... ففي ذات صباح، وبعد ليلة مؤرقة ملأت أذني هامان فيها أحاديث الغزل الملتهبة بين الحبيبين، فكادت نفسه تزهق حسرة وتألماً ونقمة، نادى إليه تلميذه الباحث ليقول له بصوت حاول أن يعيد إليه لهجة العلمي الذي كل الآخرين عنده، حتى أقرب المقربين إليه، مواد تجربة وتطبيق... ناداه ليقول له:

ـ هيِّىء نفسك للنزول تحت الصفر المطلق. سترحل إلى يابيتوس، ما دمت مصراً. لست بحاجة إلى دراسة للتعليمات، ومتى ما أجريتْ عليك الاختبارات الروتيينية، ستُبث!

وفتح رامي عينيه الخضراوين بأكبر سعتهما وقد امتلأتا دهشة،

وغبطة، وهم بالكلام. إلا أن هامان لم يترك له فرصة لذلك، اذ أضاف:

ــ ستسلك القناة الوحيدة. انها قناتك، ولك الافضلية في سلوكها.

لم يكن في هذه الاقوال أي اشارة إلى سامارا ونداءاتها. فكأن هامان أراد أن يعلم الفتى أن الامر أمر تطبيق علمي مجرد، ليس للشعور الانساني به دخل أو علاقة.

وهكذا خطا رامي خطوته الاولى في الرحلة إلى تابع زحل في فلك ذلك الكوكب السيار.

ـ ١٦ ـ

لاول مرة تتوجه سامارا عبر الافضية بين الكواكب بالحديث إلى هامان. محياها يتـألق فرحاً، وابتسامتها تكاد تطفر من شاشة المنصة لتنير القاعة الاهليلجية المتسعة التي يتصدرها مكتب العالم. قالت، وهي تقصد هامان:

ــ أقبّلكْ. كنت واثقة من أنك لا ترضى بأن تتركني لنار الشوق، احترق بها تسعة وعشرين عاماً، قبل أن ألتقي برامي. واثقة بأنك ستبث لي حبيبي قبل اغلاق النافذة الزمنية واستحالة الارسال. أنا أطير فرحاً... ألست ترى هذا على وجهي؟ لن آخذ بعد الآن دقيقة واحدة من وقت البرامج ما دام رامي، في مرحلة التهييء، لا يتاح له أن يحاورني. إلى اللقاء بعد اثنين وعشرين يوماً... سنتوجه إليك حينذاك بالتحية والشكر، وترانا أمام عينيك، بعيدين عنك وقريبين منك، متعانقين أنا وحبيبي...

واختفى وجه سامارا من الشاشة بينما كان رامي في طريقه إلى غرفة تطبيقات البث لينزل إلى برودة الصفر المطلق، ثم إلى ما دونها بدرجات، حيث يتحول تكوينه إلى عناصر ثم إلى ذرات، ثم إلى

مركباتها التي تنطلق على شكل فوتونات بسرعة ثلاثمائة الف كيلومتر إلا بضع عشرات من الكيلومترات في الثانية نحو فلك زحل، فتبلغ الجهاز المستقبل بعد ثلاث وسبعين دقيقة وبضعة أجزاء من الدقيقة، لان ابتعاد موقع يابيتوس على ذلك الفلك، ما بين بث سامارا إليه وبث رامي، يزيد امد رحلة الاخير هذه الدقائق القليلة الفائضة.

- ١٧ -

اسمحوا لنا بالتوقف هنا قليلاً. انتم تتصورون، فيما نحسب، أن قصتنا قد انتهت، وبخاتمة لا تختلف عما تنتهي به حكايات اسلافنا الاولين، حين تختتم كل قصة باجتماع شمل الحبيبين واقامة الافراح والليالي الملاح. ولعلكم تأسفون على ما اضعتم من وقت في تلاوة هذه الصفحات التي لم يختلف محتواها عن تلك الحكايات الساذجة إلا بأن الابطال المتباعدين كانوا هناك يركبون العربات والطيارات، أو الصواريخ، بينما يمتطي أبطال قصتنا ذرى الامواج الجيبية للنور أو الدفقات الكوانتية للطاقة المبثوثة.

ولكن مهلاً. كان أحب إلينا أن يصدق ما تتصورون، لولا أن بقيت لنا كلمة نعود فيها إلى ما كنا ذكرناه في الفقرة رقم ٨ من هذه الصفحات، عن التباين بين تطور عقل الفرد البشري وتطور النفس عند هذا الفرد، مما يؤدي إلى التشوه والتقصف ووقوع الكوارث. عند هذه النقطة من قصتنا يحتل ذلك التباين محله. انه التباين بين التطور المذهل الذي بلغه العقل الانساني في عام ٢٠٨٣ للميلاد، ممثلاً منجزات التقدم الذي يتركز في ضغطات انامل العالم هامان على

لوحات مجموعة العقول الكهرضوئية في مركز ابحاث دائرة الترحيل بين النجوم، وبين انشداد النفس الانسانية إلى غرائزها الحيوانية، انشداداً تمثل بتصرف هامان ذاته تصرفاً كارثياً نتيجة لتأثره بحب يائس. ومن يحلل سلوك هذا العالم الشهير يجد واضحاً أنه كان ردة فعل لمجموعة مشاعر حسب مختصو الدراسات النفسية في قرننا الواحد والعشرين هذا ان نشاطها قد امحى منذ زمن بعيد. انها المشاعر التي كان أسلافنا في القرون الماضية يطلقون عليها اسماء تختلف من لغة إلى لغة، وفي اللغة العربية يسمونها خصلة الغيرة أو شعور الغيرة.

هذا التصرف الكارثي الذي تصرف به هامان، ما كان ممكناً أن يقوم به من هو دونه منزلة ومعرفة وقدرة على التحكم بمعطيات التقدم العلمي الفائقة. رامي، ذلك العلمي الفذ، ها هو قد اجتاز كل اختبارات البث وأصبح، في النطاق المصمت للجهاز المرسل الذي يديره هامان، في مرحلة الاعداد الختامية ليشحن بالسرعة المعينة منطلقاً إلى يابيتوس. المنصات في كل شعب دائرة أبحاث الترحيل كانت تتابع على شاشاتها ترحيل الباحث القدير، وأعين العلماء والعالمات من الكهول، والباحثين والباحثات من الشباب، معلقة بأطراف أصابع هامان المتنقلة بين أزرار تشغيل العقول الكهرضوئية انتقال انامل العازف على آلته. وكما يتحول الصوت في بث المادة ذات البعد الواحد إلى موجات كهربائية مغناطيسية متباينة الشدة، في التواتر أو في الارتفاع، وكما تتحول الصورة، في بث المادة ذات

البعدين إلى مجموعة نقاط يترجمها الجهاز المرسل إلى شدات من نفس النوع، أخذت المادة الحية ثلاثية الابعاد التي هي جسد رامي تتحول، بعد تحولها إلى عناصر فذرات فجزيئاتها، إلى طاقة ستخترق الفضاء بين الكواكب اختراق الصورة والصوت بعد تحولهما إلى طاقة. والفرق بين مصير هذين الاخيرين ومصير فوتونات جسد رامي أن هذه الفوتانات لن تتوزع في الاثير ليلتقطها كل جهاز مستقبل مؤهل. انها ستسلك القناة الوحيدة في بؤرة محطة الاستقبال القائمة على سطح عاشر اقمار زحل، التابع يابيتوس.

تلك القناة الوحيدة! أي جزء من مليار جزء من مكوناتها على مسارها الطويل قد تخلخل من مكانه حتى جرى ما جرى؟ جمدت أمام اللوحات المضيئة في المنصات اعين المتتبعين، من علماء وباحثين وتلاميذ، وهلعت قلوبهم. شيء ما في جزء من الثانية التي تلت ضغط اصبع هامان على آخر ازرار الارسال قد حدث في آلة البث المتشابكة. قبل ذلك الجزء من الثانية كان جسد رامي قد انطلق بصورة طاقة مرسلة من جهاز دائرة الترحيل نحو يابيتوس، ليبلغ جهاز الاستقبال في هذا التابع بعد ثلاث وسبعين دقيقة، مخترقاً ملياراً وما يزيد عن اربعمائة مليون من الكيلومترات. الا ان اضطراباً غير متوقع قد بدا في حركات اصابع هامان وهي تتنقل على لوحة الازرار الرئيسية. وفي نفس اللحظة اشتعل في كل من العقول الكهرضوئية في جوانب قاعة العمليات ضوء أحمر ينذر بأن القناة الوحيدة التي سلكتها فوتونات ذرات المادة المبثوثة قد أصيبت بتخلخل. يا للكارثة!

وانها لكارثة. أترى هذه الفوتونات المبثوثة تصل إلى فلك زحل، ثم إلى يابيتوس، ثم إلى جهاز الاستقبال في محطة الابحاث هناك ليعود رامي، هذا الفتى الباحث، انساناً سوياً تتلقاه في حضنها الدافىء حبيبته سامارا؟!

— ١٨ —

أهي القناة الوحيدة التي أصابها خلل، أم انها اصابع العالم هامان التي ضلت طريقها على ازرار البث والارسال؟ الذي نعرفه ان رامي، ذلك المنكود الحظ، قد انطلق اشعاعاً من محابر دائرة ابحاث الترحيل بين النجوم في كوكب الارض، ولكنه لم يلتقط في جهاز الاستقبال في تابع يابيتوس جسداً آدمياً.

وقد دلت الابحاث التي أجراها رصفاء هامان، الذي أصيب بانهيار عصبي بعد تلك الحادثة الكارثة، على أن الكتلة الاشعاعية التي نجمت عن تحول المادة ثلاثية الابعاد في جسد رامي إلى طاقة قد بلغت فلك زحل حقاً، إلا أن القناة الوحيدة التي سلكتها لم تتوقف بها في مدار يابيتوس. الذي جرى هو أنها استمرت في مسيرها حتى بلغت حزام زحل، وهو كما تعرفون نطاق مشكل من أربع حلقات دائرية متفاوتة في الاضاءة وفي الانشحان الالكتروني، ويفصل بين أولها وثانيها شق كاسيني المظلم المشهور. كل حلقة من تلك الحلقات الاربع تتكون، كما بينت ابحاث العلماء القدماء، لا من ذرات نور بل من أجسام مادية بالغة الصغر، يمكننا أن نعتبرها توابع وأقماراً متفاوتة في ضآلة الحجم، وهي تدور حول زحل بسرعات تتناسب مع أحجامها ومع بعدها عن مركز ذلك الكوكب السيار.

عند الحافة الخارجية لحلقة حزام زحل الأولى تضاءلت سرعة فوتونات جسد رامي المبثوث حتى قاربت الصفر، وبذلك تحولت من طاقة إلى مادة مجسدة. إلا أنها لم تجد أمامها جهاز الاستقبال الذي يعيدها إنساناً سوياً، ولا حتى مادة حية. لقد أصبحت مزيجاً من العناصر، وربما كتلة من المركبات المعدنية والعضوية، انضمت إلى مجموعة الأقمار الدقيقة والتوابع الصغيرة الدائرة في الحلقة الأولى من حلقات الحزام، مكونة فيها تابعاً جديداً. وهذا ما أكدته الاستكشافات والدراسات التي أجرتها هيئة خاصة ألفت بغاية البحث عن مكونات جسد رامي. وإذا كانت أعمال هذه الهيئة قد توصلت إلى معرفة مصير ذلك الجسد فإنها قد باءت بالفشل في محاولة إعادة عناصره إلى مخابر دائرة الأبحاث في يابيتوس أو على كوكب الأرض.

وهنا، في ختام قصتنا هذه، نورد ما أثبته التقرير النهائي لتلك الهيئة الخاصة، ألا وهو الاقتراح الذي تلقته تلك الهيئة من الباحثة سامارا، المقيمة في محطة دائرة الابحاث على التابع يابيتوس طالبة رفعه إلى مجلس التسميات الفلكية. فقد طلبت هذه الباحثة، ولسبب لم يكن يعرفه الا قليلون، ان يطلق على هذا التابع الجديد الذي تم تحديد صفاته المميزة اسم «زيلوس» وهي الكلمة التي يعادلها في اللغة العربية لفظ «الغيرة».

وهذه حكاية الكوكب زيلوس، كوكب الغيرة الدائر في فلك زحل وعلى هامش الحلقة الاولى من حلقات حزامه، في قلب المجموعة الشمسية التابعة للمجرة الكبرى في كوننا المنظور.

* * *

الأحجية

ـ ١ ـ

في جلسة الاربعاء المسائية في دار السيد بدر الدين، في البلدة الصغيرة، دار الجدل في آخر الجلسة حول موضوع النية والعمل. ودار في اشده، كما ألف الحضور، بين الصديقين اللدودين الشيخ عبد السميع والدكتور حبيب. إلا أنه لم ينته في هذه المرة، شأنه في كل مرة، باستسلام الدكتور حبيب لغريمه على كره، متظاهراً على الرغم منه بالاقتناع بحجج مجادله، بل اتخذ الحديث اتجاهاً آخر سنتعرف عليه في حينه.

بدأ الامر بعتاب مقارب للتقريع وجهه الشيخ عبد السميع لصاحبه الطبيب على الطريقة التي اتبعها في معالجة فتى من أهل بلدتهم، اسمه اسماعيل، فارق الحياة منذ أيام قليلة. كان الدكتور حبيب مقتنعاً منذ البدء بأن داء الصبي لا شفاء منه. ومع ذلك فقد وصف له أنواعاً من الادوية والمعالجات أرهقت جيوب أهله المحدودي الموارد ولم تزد حاله إلا سوءاً. ثم أشار عليهم بنقله إلى المدينة الكبيرة لمعالجات جديدة لم تفد، ان كانت أفادت، إلا باطالة عمره أياماً

معدودات قضاها في تألم وعذاب. ان اهل الصبي، مثل كل أبناء البلدة، يعملون باشارة الدكتور حبيب لثقتهم بمعرفته وباخلاصه فيما يرتأيه لهم، فلماذا لم يترك اسماعيل لمشيئة الله ما دام علم الاطباء وأدويتهم عاجزة عن أن تحمل إليه العافية؟ أليست اساءة اجترمها الدكتور حبيب في حق الصبي حين ساهم في اطالة أيام عذابه، وفي حق أهله بما كبدهم من نفقات هم أحوج إليها في متطلبات عيشهم؟

تلقى الدكتور حبيب هذا العتاب المقارب للتقريع بسعة صدر وبابتسامة عريضة دأب على أن يتلقى بها مماحكات الشيخ عبد السميع فيزيد من غيظه ومن حدته في النقاش. كان باستطاعته أن يرد على الشيخ بأن قسم ابقراط الذي بدأ به مزاولته لمهنته يلزمه بأن يجهد لابقاء شعلة الحياة في اجساد مرضاه بكل وسيلة ممكنة. الا أنه خشي من أن يفتح على نفسه، باحتجاجه بأبي الاطباء ابقراط الاغريقي، الوثني، باب هجوم جديد من الشيخ. لذا آثر أن يدفع الحملة عليه بأسلوب آخر، فقال:

ـ أنا معك يا شيخي في كل ما تكلمت به. وانما يجدر بك أن تجد عذري في نيتي الحسنة التي كنت اضمرها لاسماعيل. كنت أحاول أن أطيل في عمره، وما حاولت أبداً أن أزيد من عذابه.

قال الشيخ عبد السميع بحدة: نيتك الحسنة... نيتك! ماذا يهمني أنا من نيتك؟ العمدة في ما جرى هي على العمل. وأنا أحكم عليك من عملك لا من نيتك.

وهنا اتسعت ابتسامة الدكتور حبيب على شفتيه حتى قاربت الضحكة فقال الشيخ:

ـ لم يبق إلا أن تضحك. أترى فيما تصرّفت به ما يضحك؟

قال الدكتور حبيب: لم أضحك لتصرفي يا عزيزي الشيخ. أنا مثلك قاربت أن أبكي على ما جرى للصبي، على الرغم من كوني طبيباً مرت به حالات كثيرة مثل حالته وأكثر اثارة للحزن. ولكني وجدتك تتكلم مثل الفرنسيين الكفرة الذين يقولون في أحد أمثالهم ان ارض جهنم مرصوفة بالنيات الحسنة. وأبتسم كذلك لحكاية مرت بخاطري وأنت تذكر النية والعمل فاردت أن أستفتيك فيها.

وتهيأ الشيخ ليرد على صاحبه بقسوة، إلا أن السيد بدر الدين، رب الدار، وجد له مجالاً ليحوّل الحديث إلى مجرى آخر فقال:

ـ وما هذه الحكاية يا حكيمنا؟

قال الطبيب: ليسمح لي شيخي الاستاذ عبد السميع بأن أتركها إلى الجلسة القادمة. هي حكاية طويلة، وأنا على موعد. ثم اني أريد الرجوع إليها في كتاب عتيق من مخلفات المرحوم جدي. قرأتها في صباي وأحسب أن بعضاً من تفاصيلها قد امحى من ذهني. تصبحون على خير، والسلام عليكم.

ـ ٢ ـ

وفي أمسية الاربعاء التالية، في دار السيد بدر الدين، بدأ الحضور جلستهم بالتساؤل عن حكاية الدكتور حبيب التي وعدهم بروايتها لهم.

قال الطبيب: ليست هي حكاية، بل معضلة أحب أن أستفتي شيخنا الفاضل بها. لا... بل هي أحجية أريده على أن يحلها لي، ولكم.

ولما كانت الايام السبعة الماضية قد طامنت من تشدد الشيخ في محاسبة الطبيب على تصرفاته، فقد بدا أكثر استعداداً لسماع ما يقوله غريمه الدائم ولتقبل ما يدلي به من آراء. بل انه أراد أن يجاريه في مرح المحاورة فابتسم وهو يسأله:

ــ احجية؟ وهل تطلبت احجيتك سبعة أيام من التحضير قبل أن تطرحها عليّ؟

قال الطبيب: لم تتطلب كل هذا الوقت. عدت إلى كتاب جدي المرحوم ثاني أيام جلستنا الفائتة، ووجدت فيه الحكاية بتفاصيلها.

ولكنك تعلم يا شيخي ان ظروفنا، انا وكثير من اخواننا الحاضرين، لا تسمح لنا بالتلاقي إلا في جلسة الاربعاء هذه.

قال السيد بدر الدين: الا تقصها علينا هذه الحكاية، أو تطرحها علينا إذا كانت، كما تقول، احجية؟

فرد الدكتور حبيب قائلاً: اصبروا عليّ قليلاً. عدت إلى كتاب جدّي لاسترجع ما كنت قرأته في صباي... كتاب هو مجلد مهترىء من تلك التي يسمونها الكتب الصفراء، والتي يشبه بعضها بيدر قش مدفونة فيه جوهرة: يضيع وقتك وتختنق أنفاسك، وتغثى معدتك أحياناً وأنت تفتش فيه... إلا أنك تنسى كل ما لقيته من عناء حين تحظى بالجوهرة، أو الجواهر، المدفونة فيه.

قال أحد الحضور مستعجلاً: الحكاية يا دكتور... الحكاية!

قال الطبيب: نعم، الحكاية. انها قصة أخوين شقيقين، الكبير اسمه محمد، والصغير أحمد. ذكرني ما قرأته من صفاتهما بي وبأخي الشيخ عبد السميع. السنا أخوين في الله يا أستاذ عبد السميع؟

فأجابه الشيخ، وقد تهلل وجهه: بلى ان شاء الله.

فسأل سالم أفندي، وهو مأمور البريد في البلدة: من منكما يا دكتور الكبير، ومن منكما الصغير؟

قال الطبيب: الشيخ عبد السميع هو محمد، انه أكبر مني سناً وقدراً، وأنا الصغير، أحمد. نعم، هما أخوان لأم وأب. توفي أبوهما

وترك لهما ثروة طائلة ومنزلاً في بستان في ظاهر المدينة أقاما فيه معاً واختص كل منهما بجزء منه. سكن الكبير في الطابق العلوي، وهو شقة فخمة مملوءة بالرياش والتحف الثمينة. الا انه اقتصر في سكناه على العلّية، اعني على حجرة صغيرة فوق السطح أثاثها فراش متواضع وسجادة صلاة، وليس فيها من الآنية غير كوز للشرب وابريق للوضوء. ذلك بأن الأخ الكبير كان شاباً تقياً، زاهداً في طيبات الحياة، همه الصلاة والتفكر في بدائع خلق الله وعجائب آياته. وكانت سكناه في العلية تتيح له الابتعاد عن ضجيج الناس في الارض وعن مشاغل الدنيا الفانية. أيامه قراءات في الدين وتأمل، ولياليه ابتهالات وتبتل واستغفار إلى الله من نزغات الشيطان ونزوات النفس الامارة بالسوء...

وهنا عاد سالم أفندي نفسه إلى السؤال قائلاً:

ــ هذا عن الشيخ عبد السميع، أعني عن محمد. وماذا عنك يا دكتور، أعني عن أخيه الصغير أحمد؟

قال الطبيب، متجاهلاً لهجة مأمور البريد الساخرة:

ــ أحمد هو الابن الصغير، لذا كان صبي أبيه المدلل في حياته. اختص أحمد بالطابق الاول إلا أن اقامته كانت بصورة دائمة في قبو المنزل أو سردابه. في القبو يقضي أغلب ساعات نهاره وكل ساعات ليله، وفيه يستقبل اصدقاءه والمترددين عليه، ويحيي حفلاته الساهرة التي تبدأ منذ المغيب وتستمر حتى الفجر أو إلى مطلع النهار. كان أحمد

على خلاف أخيه فتى ماجناً منصرفاً إلى لذائذ العيش، مولعاً بالشراب والعزف والغناء، وبرفقة عشراء السوء من الرجال والماجنات المبتذلات من النساء. لم يتورع هذا الفتى عن أن يحيل السرداب الذي يقيم فيه إلى مقصف لهو، وذلك في الدار التي يساكنها فيه أخوه، وعلى مرأى ومسمع من ذلك الاخ الزاهد الورع. وفي احدى الليالي...

وهنا تدخل سالم أفندي مرة أخرى في الحديث مقاطعاً، فقال: أبهذا تصف نفسك يا دكتور؟

قال الطبيب: أنا أصف أحمد ولا أصف نفسي. اذا كنت تراني هكذا يا سالم أفندي فليسامحك الله... وليرحمني.

قال الشيخ عبد السميع مخاطباً الدكتور حبيب، كالمطيّب لخاطره:

ـ أخونا سالم أفندي يمزح. أنت لست الصغير أحمد، وأنا أكثر انشغالاً بالدنيا وبهارجها من أكون مثل أخيه الكبير، ولو أني تمنيت على الله أن يرزقني تقوى ذلك الاخ وزهده.

قال السيد بدر الدين، متجاوزاً هذا الكلام الهامشي: من فضلك يا دكتور أكمل الحكاية. ماذا جرى في احدى الليالي؟

قال الطبيب: نعم يا سيدي... في احدى الليالي أقام أحمد، الأخ الصغير، في ذلك القبو احدى سهراته الماجنة، وقلّ ان تمر ليلتان

دون اقامته واحدة منها - العزف والقصف كانا في ذروتها، والجو في قاعات السرداب مثقل بأنفاس الساهرين والساهرات وبأدخنة اللفائف المتكاثفة وبروائح الاشربة بأنواعها. وفي منتصف الليل أحس الفتى، أعني أحمد، بضيق في صدره فخرج إلى الحديقة الصغيرة الملحقة بأرض الدار ليتنشق الهواء النقي فيها. كانت الليلة ربيعية مزدهرة الانجم، رائقة النسيم، وأرجاء الحديقة معطرة بأنفاس الياسمين والورد الجوري. عب ملء رئتيه من ذلك النسيم الرطيب ورفع رأسه متطلعاً إلى النجوم فوقه فشدهه التماعها في زرقة السماء الداكنة كأنما كان يراها لأول مرة. وحانت منه التفاتة فوقع نظره على ضوء العلية التي يسكنها أخوه محمد على سطح الدار. ضوء ضئيل يتسلل من طاقة صغيرة كأنه في التماعه الخافت نور احدى النجوم البعيدة في صفحة السماء. لتلك النظرة أحس أحمد برعشة تهز كيانه وبيد تعصر قلبه بين أضلاعه. من أعماق القبو كانت تصل إليه الحان الموسيقى الراقصة مقطعة برنين الكؤوس وبالغناء والضحكات الداعرة. وفوقه كانت السماء الرائعة، الجليلة البهاء، وضوء العلية الذي أحس بأن أشعته، على خفوتها، كانت تنفذ إلى صدره كأنها حراب مسنونة، أو كأنها ألسنة لاذعة ناطقة تقول له: أما تستحي يا أحمد؟... أما تتقي الله يا أحمد؟ عشرة أعوام مضت عليك منذ توفى الله أباك وأنت غارق في الموبقات، تتبع خطوات الشيطان فيما يزين لك من المعاصي، أمام عيني أخيك التقي الورع وعلى بعد خطوات من مصلاه! ماذا جنيت من مقارفة شهواتك غير لذة زائلة تعقب المرارة في

الفم والعذاب في الوجدان بعد أن تكون أهدرت فيها صحتك وأنفقت مالك؟ انظر إلى أخيك في العلية واستح من نفسك... لذته وجدها في القرب من الله، ونعيمه لقيه في رضاه، ويا لهما من نعيم ومن لذة لا يقاس بهما ما تجنيه من اشباع شهواتك البهيمية ومن صحبتك لهؤلاء الفاجرين والفاجرات...

وهنا تساءل أحد الجلوس، مقاطعاً الدكتور حبيب وهو منطلق في وصفه المؤثر لحال الفتى أحمد:

ــ أهو احساس بالتخمة، أم هي يقظة ضمير؟

قال الطبيب: العلم عند الله، وهذا ما جرى وما خيّل إلى أحمد أن أشعة الضوء المنبعثة من طاقة العلية تحدثه به. خيل إليه أنها كانت تهتف به: أحمد... أحمد... أما تستحي من نفسك؟ فاستحى من نفسه. شعر بعبث الحياة التي عاشها منذ مات أبوه، منذ عشر سنوات، وبثقل ما حمل عنقه من أوزار في هذه السنوات العشر. وفي تلك اللحظة سطع في أعماقه نور سكّن الرعشة التي تملكته وحرر قلبه من اعتصار الاصابع المطبقة عليه. في هداية هذا النور عزم على أن يسعى إلى أخيه الكبير في عليته، فيقطع عليه صلاته المنصرف اليها في تلك العلية، وينكب على يديه مقبلاً لهما ومعلناً له أنه طلّق الدنيا ودنس ملذاتها طلاقاً لا رجعة فيه، ومتوسلاً إليه أن يقبله في زاوية من عليته ليغسل بدموع الاستغفار ذنوبه السالفات، عسى الله أن يقبل توبته ويقيه عذاب النار الموقدة ويتقبله في زاوية من جنته التي وعد

بها من تاب وأناب. نعم، عزم أحمد على هذا، وباشره: انطلق في لحظته تلك، غير مفكر بالتعريج على رفاق السوء الغارقين في مفاسدهم في احشاء القبو، وتوجه بجسده وروحه إلى علية أخيه، متخذاً طريقه إليها السلم القائم في وسط الدار، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وفاضت جوانجه بأنوار العودة إلى الله تبارك وتعالى...

وهنا علا صوت الشيخ عبد السميع هاتفاً بتأثر:

ـ انها هداية الله. سبحانك اللهم سبحانك! أكمل يا أخي الحكيم.

فارتسمت على شفتي الدكتور حبيب ابتسامة خفيفة، بين المكر والرضى، كأنما سرّه أن يثير ما قاله اعجاب الشيخ عبد السميع، وقال:

ـ سأكمل. في تلك الدقائق التي جال فيها في خاطر أحمد ووجدانه ما جال، وساقه إلى ما ساقه إليه، كان الأخ الكبير، محمد، منصرفاً في عليته إلى صلاته وتهجّده واستغفاره وتسبيحه. وفي اللحظة التي أحس فيها أحمد بضيق في صدره دفعه إلى أن يخرج من السرداب الى الحديقة أحس محمد برغبة في أن يريح ساقيه مما خلفه فيهما تواتر الركوع والسجود من الخدر، فخرج من الحجرة الصغيرة إلى سطح الدار وراح يتمشى عليه في مهل. ادار بصره فيما حوله، متطلعاً إلى أنوار المدينة القصية تصل شاحبة إلى عينيه، وإلى النجوم الملتمعة فوقه، وأصغى إلى ما تلتقطه أذناه من أصوات قريبة و بعيدة. كانت

كما قلت لكم ليلة ربيعية صاحية السماء تلألأت أضواء نجومها في عين الفتى محمد وملأ نسيمها الرائق صدره، فحمد الله على نعمه التي لا تحصى وسبحه على عجائب ما ابتدعه من أكوان. وحين وقف من السطح على الحافة فوق نوافذ القبو الذي يقيم فيه أخوه، وتناهت إلى سمعه ضجة الساهرين فيه، حوقل واستغفر، ودعا الله بحرارة إلى أن يهدي أخاه الضال إلى صراطه المستقيم...

لم يملك الشيخ عبد السميع نفسه، عندما سمع هذه الجملة الأخيرة، من أن يرفع صوته قائلاً:

ـ الله أكبر. استجاب الله دعاء الرجل الصالح.

فاتسعت لهذه الكلمات ابتسامة الدكتور حبيب، الرضية الماكرة، على شفتيه وتابع حديثه. قال:

ـ دعا الله ربه أن يهدي أخاه الضال إلى الصراط المستقيم بينما كان يصغي إلى الاصوات المتعالية إليه من كوى القبو. ميز من بين تلك الاصوات انغام غناء تطلقها أصوات رخيمة على ألحان موسيقى شجية، وتناهت إلى أذنيه ضحكات ناعمة تنبض بالبهجة والفرح. وفي رقة النسيم الذي كان يتسلل ندياً إلى صدره وفي روعة هذا الليل الربيعي تحولت الانغام المطربة والضحكات المرحة في خاطر محمد، الذي كان في عنفوان شبابه، إلى صور حية تخيلها عن الساهرين في أعماق ذلك القبو، وعما يرتعون فيه من لهو شائن ولذاذات فاجرة. تخيلهم فتيات وفتياناً في ربيع العمر وفي زهو الصبا يصفقون ويرقصون

ويتساقون الانخاب، قد اعطوا نفوسهم هواها وألقوا الهموم وراء ظهورهم. وتخيل الوجوه الصبيحة والقدود المشيقة والنهود المشرئبة متلاصقة متعانقة، والعيون تنطق بالرغبات الفائرة والشفاه منتشية بطلا الكؤوس ولمى القبلات. وتخيل أخاه ثملاً، مترنحاً، يتنقل بين أذرع الغانيات وأحضانهن، فأحس إلى جانب الرثاء له بشيء من الحسرة. أهي حسرة؟ لعلها الغيرة أحس بها من أخيه! منذ موت أبيهما وهذا الأخ الصغير سادر في غيه يعب من الشهوات عباً، غير مكترث بما يجره عليه الركض في دروب ابليس من نقمة الرحمن عليه. لا... كيف يحكم على أخيه هكذا؟ لعل ايمان ذلك الأخ بأن الرحمن هو ربه هو الذي أطمعه بعفو هذا الرب ومغفرته حين يؤوب إليه في ذات يوم تائباً مستنيباً. أليس هو الرحمن الرحيم؟ أمّا هو، محمد الأخ الكبير، فانه لم ير من ربه سوى صفات الجبروت والقهر فخافه على نفسه. حرم نفسه طيبات ما خلق الاله الكريم رهبة من بطشه تعالى وفزعاً من عذابه. لمن أبدع الله الوجه الجميل والصوت الرخيم واللقمة الهنية والملبس الناعم إلا لابن آدم؟! وعادت إلى خاطر محمد وهو يسأل نفسه هذا السؤال ذكريات جفاء عشر سنوات مرت به، منذ وفاة أبيه، وذكريات شظف الحياة الذي راض نفسه عليه فيها، لا يلبس من اللباس إلا الخشن ولا يأكل من الطعام إلا الجافي... يقضي نهاره صائماً وليله قائماً، وإذا ثارت في عروقه الدماء بالشهوة العارمة لعن الشيطان وأحرق شهواته بجمر الحرمان. ترى ماذا غنم زيادة عن أخيه بهذه القسوة التي أخذ نفسه بها؟ أليس إذا تاب

أخوه غدا يعفو الله عنه فيفوز بنعيم الآخرة بعد أن روى نفسه من نعيم الحياة الدنيا؟ فماذا لو غبّ هو، الأخ الكبير، بعض جرعات من النعيم الذي يعب منه في هذه اللحظات أخوه وأصحاب أخيه؟ كفاه... كفاه ضياع عشر سنوات من عمره قضاها في شقاء وحرمان تغنيه عنهما في آخر حياته توبة يتقدم بها إلى ربه فيغفر له ذنوبه، إذا كان التنعم بلذائذ ما خلق الله ذنباً! جدير بهذه التوبة أن يتقبلها منه الخالق الرحيم، اللطيف بعباده، فيزحزحه عن ناره ويدخله جنته...

وهنا سكت الدكتور حبيب لحظات، كالمنتظر من سامعيه تعليقاً على ما استرسل به من رواية لخواطر الأخ الكبير في وقفته على سطح الدار وهو يستمع إلى ما تناهى إليه من قبو أخيه من أنغام وأصوات، ويتصور المشاهد التي توحي بها تلك الانغام والاصوات. إلا أن السامعين في الجلسة المسائية ظلوا على سكوتهم، مرتقبين معرفة ما سيفعله الأخ الزاهد بعد أن استبدت به هذه الخواطر المبعدة كثيراً عن تأملات الزهاد. فتابع عندئذ الطبيب حديثه قائلاً:

— كم استمر محمد في التخيل والتفكير بهذه الصورة التي أقصها عليكم؟ ليس هذا هو المهم. المهم أن التساؤل الأخير الذي طرحه على نفسه بشأن تذوق بضع جرعات من ينبوع اللذة الذي يعب منه أخوه تحول إلى رغبة عارمة، وان الرغبة تحولت إلى عزم واقدام. بدا له في تلك اللحظات أن كل دقيقة يمكثها في علّيته بعد الآن هي خسارة من عمره لا تعوض، وأن عليه أن ينحدر في التو إلى أخيه ليستدرك

فوت ما حرم منه في دقائق السنين العشر الفائتة وثوانيها. أترى أخاه يفسح له مجالاً في جنة الشهوات الجنية التي يعيشها؟ لا بد من أنه فاعل... أليس هو أخاه الكبير؟ وبدون تردد، ولهب الرغائب المجنونة التي طالما كبتها يتأجج في عروقه، أسرع إلى السلم الذي يتوسط المنزل ذي الطابقين منحدراً نحو أخيه...

وهنا قال الشيخ عبد السميع بصوت مختنق: اللهم عفوك... أتراه يفعلها الفتى الزاهد؟

فرد عليه مأمور البريد، في لهجة بين السخرية والاهتمام الجاد، قائلاً: انتظر يا شيخي. لن يذهب زهد الرجل سدى. سيهدي الله به أولئك الفجار ويخرجهم بكرامته من قبو الضلالة إلى النور.

ولم يلق الدكتور حبيب بالاً إلى كلام الرجلين، بل تابع قائلاً:

ــ انحدر محمد إلى قبو أخيه في أسفل الدار في نفس اللحظة التي صعد فيها أخوه إلى لقائه في العلية على سطحها. كلاهما توجه إلى غايته مسرعاً، على درجات السلم الطويل الذي يخترق طابقي البناء بين السرداب والسطح. سلم ضيق، ملتو على نفسه، غارق في الظلمة اذ لم يضأ فيه نور منذ هجر محمد طابقه العلوي إلى حجرته على السطح ولزم أحمد قبوه مستغنياً به عن بقية الدار. والتقى الاخوان، دون أن يدري أحدهما بقصد الآخر، ودون أن يراه أو يسمع له حساً، في منتصف السلم. التقيا؟... الصحيح أن أحدهما اصطدم بالآخر فجأة، وبقوة. كان محمد يقفز الدرجات نزولاً في عجلته إلى بلوغ

الدرك الاسفل حيث تنتظره فاتحة ذراعيها عرائس اللذات، وكان أحمد ينهبها صعوداً إلى العلية في عجلته إلى الاغتسال بأنوار التوبة من درن الخطايا، فاصطدم أحدهما بالآخر. تشابكت منهما الاذرع بالأرجل، والتوى جسد أحدهما على جسد أخيه، وتدحرجا على درجات السلم، الضيق والطويل المظلم، إلى أن وصلا إلى القاع. وحين وصلا إليه كانا جثتين هامدتين...

وتوقف الدكتور حبيب عن الكلام فاطلق أحد الجالسين من بين شفتيه صفير اندهاش، بينما قال الشيخ عبد السميع كالمفاجأ بما سمع:

ــ غفرانك ربي! لا حول ولا قوة إلا بالله.

وأعقب ذلك صمت استمر برهة، سأل بعدها السيد بدر الدين كأنه لم يصدق سمعه:

ــ ومات الاثنان؟

قال الطبيب: نعم ماتا، دون أن ينطق أحدهما بكلمة قبل موته. كل ما تذكره القصة أن نية أحدهما قبل لحظة مغادرته الدنيا كانت في القطب المقابل لعمله أثناء حياته. نفض أحمد، وهو الأخ الصغير الفاجر الداعر، يديه من المعاصي والخطايا ونوى التوبة والرجوع إلى ربه بقلب نقي من الادران. أما الأخ الكبير، التقي النقي، فقد تحلل من تقاه في اللحظة التي سبقت موته وأسرع إلى حيث كان مصمماً على أن يعطي نفسه هواها، فمات وهو عاقد النية على ذلك. كل منهما

عمل شيئاً، ثم تحول عن عمله ونوى شيئاً آخر. فعلى أيّ من الاثنين يحاسب الله العلي القدير كلاً منهما، على العمل أم على النية؟

قال مأمور البريد، جاداً كل الجد في هذه المرة: حكاية غريبة. والحق معك يا حكيم حين قلت عنها أنها أحجية. لا بد للانسان أن يتساءل في نهايتها إلى أين يكون مصير محمد، وما مصير أحمد... أيهما سيكون جزاءه الجنة، وأيهما جزاؤه النار؟

قال الطبيب بلهجة ظاهرها البراءة وباطنها مكر: وجه سؤالك إلى الشيخ عبد السميع يا سالم أفندي. انه استاذنا وعلمه في هذه الامور فوق علمنا.

وتوجهت الانظار إلى الشيخ عبد السميع منتظرة ما يرد به، فبدا عليه التردد خلال برهة، ولم يلبث أن قال:

ــ هذه ليست مجرد احجية يا حكيم. انها مصيبة... مأساة. أو لعلها، اذا صحت وقائعها، محنة أراد سبحانه وتعالى أن يمتحن بها عباده، الصالحين منهم والطالحين، وله فيها حكمة لا ندرك نحن المساكين ابعادها.

قال الدكتور حبيب: هذا تهرب يا شيخ عبد السميع. نريد رأيك فيما سأل عنه سالم أفندي. من ترى بين الاخوين يكون مصيره الجنة، ومن تراه يصير إلى جهنم؟

فبدا على الشيخ الضيق الذي يهدد بعودته إلى حدته المعهودة في مجادلة الطبيب. ولعل هذا ما دعا السيد بدر الدين إلى التدخل وإلى أن يقول:

ــ اسمحوا لي جميعاً بكلمة. انها أحجية كما اتفق أكثرنا على تسميتها. والاحجية لا تحل بلحظة واحدة. دعونا نفكر بها، ولعلنا نستفتي بها أهل العلم من غير شيخنا الشيخ عبد السميع. ما قولكم إذا تركنا الحل إلى جلستنا المقبلة، في مساء الاربعاء القادم؟

ووافق جميع الحضور على اقتراح السيد بدر الدين، وانفضت جلسة تلك الامسية.

* * *

ـ ٣ ـ

قبل أن يحين موعد اجتماع الاصحاب في دار السيد بدر الدين يوم الاربعاء التالي، بل وفي مساء اليوم الذي اعقب الجلسة الفائتة، فوجىء الدكتور حبيب بالشيخ عبد السميع يدخل عليه غرفة المعاينة في عيادته. كان الطبيب يتهيأ للانصراف بعد أن فرغ من العناية بآخر مرضاه، فرحب بصاحبه الشيخ متوقعاً أنه جاء لشكوى يشتكيها في جسده. إلا أن الشيخ عبد السميع تضاحك وهو يحمد الله، قائلاً أنه في عافية تامة، وأنه جاء مستعجلاً قبل يوم الاجتماع ليحدثه في أمر الاحجية التي طرحها هو الطبيب على الحضور، وعليه هو خاصة، الشيخ عبد السميع، أمس.

قال الدكتور حبيب: اذن فقد وجدت لها حلاً؟ أراهن على أنك لم تنم الليلة البارحة، بل قضيتها في تقليب كتب الفتاوى ومراجعة أقوال سادتنا الفقهاء القدماء.

قال الشيخ: حقاً لم يغمض لي جفن ليلة أمس. ليس لأني كنت أبحث عن حل الاحجية في الكتب، بل لاني كنت أفكر.

فقال الطبيب مازحاً: أنت تفكر؟ عجيب!

ابتسم الشيخ عبد السميع وقال: إسخر كما تشاء. هل تذكر تشبيهك اياي ونفسك بالأخوين محمد وأحمد؟ هذا الذي طرد النوم من عينيّ في الليلة الفائتة.

فسأل الطبيب: ولماذا؟

قال الشيخ: فكرت بحكاية الشابين، بحياتهما ونهايتهما، وبمصيرهما الذي لا أدري إلى أين انتهى كل منهما فيه... أيهما سيحظى برضوان الله ويدخل جنته، وأيهما سيبوء بغضبه فيكون مثواه جهنم.

قال الطبيب: اذن أنت لم تجد الحل لأحجيتنا؟

أجاب: قطعاً لا، و لا أطمع في أن أجده. ما جاء بي إليك قبل موعد جلستنا شيء آخر. جئت لأعترف لك بخطأي معك، لا في اجتماعنا الفائت، بل في الذي سبقه، حين تحدثنا بشأن الصبي اسماعيل.

فرد الطبيب قائلاً: لا أذكر أنك أخطأت بشيء. كنت محتداً في حديثك معي عن النية والعمل، وحدّتك ليست جديدة عليّ... ألفتُها.

قال الشيخ: ولذا تراني أقر لك بخطأي. طالما قرعتك وقسوت عليك فيما كنا نتجادل فيه. وصفتك بأنك رجل دهريّ، لا تؤمن بغير المادة. واتهمتك مرة بالالحاد لأنك لا تصدق كرامات الصالحين ولا حتى معجزات الأنبياء.

قال الدكتور حبيب: لم يكن هذا يزعجني منك. كنت أتلقى اتهاماتك بصدر رحب، وأسأل الله أن يسامحك على نسبتك اياها إليّ.

قال الشيخ: أعرف هذا. وأعرف أن مجادلاتي معك انتهت في غالب الاحيان بالظهور عليك. ينضم الناس في نهايتها إلى جانبي معجبين بقوة حجتي وقدرتي على اقناع الشكاكين والملحدين. ولكن...

رد الطبيب كلمة الشيخ عبد السميع الأخيرة متسائلاً: ولكن؟

قال الشيخ: ولكن نهاية الاخوين صدمتني. ماذا لو أراد الله بي وبك ما أراده بهما؟ قطعنا، أنت وأنا، من عمرنا شوطاً طويلاً، فماذا لو هجر كل منا موقعه الحاضر واتجه، في آخر عمره، إلى ما يعتقده الآخر؟!

فابتسم الدكتور حبيب وهو يسأل:

ــ ماذا يا شيخ عبد السميع؟ هل صرت تشعر بالشكوك التي راودتني في القضايا التي نتناقش فيها بين الحين والحين؟ اذا اعترفت لي بهذا فانا أعترف لك بأني كنت أتظاهر دوماً بالاقتناع بحججك، دون قناعة حقيقية... ولكني في الزمن الأخير وجدت أن الحاحك في اقناعي بما تعتقد لم يذهب سدى. بدأ بصيص الايمان يتسرب إلى نفسي...

فهتف الشيخ عبد السميع قائلاً: هل صحيح هذا؟ اني سعيد بما تقول.

إلا أنه لم يلبث أن أضاف بصوت منكسر: لا ... لا تقل هذا. أخشى أن يصبح الامر جداً وأن نسير، متعاكسين، في طريقي الشقيقين...

قال الطبيب وقد اتسعت ابتسامته: تعني أن أرقى أنا السلم إلى العلية وتنحدر أنت إلى سرداب الشهوات والمعاصي. هل تراني كفوءاً لأن أرقى المنبر وأعظ الناس في أيام الجمع؟ أم ترى في نفسك الكفاءة لحمل سماعة الطبيب والغوص في كتب العلماء الاجانب، الملاحدة الملاعين؟

فجارى الشيخ صاحبه في الابتسام، وقال: ليس هذا ما أقصده يا حكيم.

فتابع الطبيب كلامه قائلاً: أو لعلنا نصطدم في منتصف مسيرتنا ونهوي ميتين في لحظة معاً. من منا يفوز عندئذ بالفردوس ومن منا يكون قراره النار؟

قال الشيخ: لا. لن تصل الامور بيننا إلى هذا الحد بمشيئة الله. في ليلتي التي لم أنم فيها تبينت الحكمة في قصة الاخوين. انها تدعونا إلى أن لا يزدهي واحدنا بواقعه أو يتعنت في تقييم الآخرين. لذا جئتك الآن معترفاً بما أخطأت في ملاسناتي معك. سامحني.

قال الطبيب: أستغفر الله... ولكنك لم تعطني رأيك بالمصير الذي تعتقده للأخوين. بأيها يحكم على كل منهما، ابنيته أم بعمله؟ ما هو حل الاحجية؟

قال الشيخ : أنت مصر على أن تصفها بالاحجية بينما أراها أنا حكمة. ليس عندي في شأنها غير ما قلت لك. واستودعك الله.

وحين أغلق الشيخ عبد السميع باب الغرفة وراءه جلس الطبيب في مقعده وراح يستعيد في خاطره حكاية الاخوين ويردد بينه وبين نفسه الكلمات التي تكررت في الحكاية والحديث عنها: النية والعمل، الجنة والنار، الحكمة والاحجية. وانتبه إلى أنه تلبث طويلاً في عيادته بعد أن كان متهيئاً للانصراف فانتزع جسمه من المقعد وهو يقول في سره: يبدو أن السحر انقلب على الساحر... لم يبق إلا أن آرق ليلتي، مثل الشيخ عبد السميع، وأنا أفكر في الاحجية التي طرحتها ساخراً على الآخرين!

وأسرع في الخروج من العيادة مطبقاً وراءه بابها الخارجي بعنف.

الفهرس

صحيفة